حضرة المتهم قلبي

حضرة المتهم قلبي

رواية

عبير مصطفى

رواية : حضرة المتهم قلبي

الكاتبة : عبير مصطفى

إخراج فني : أحمد سيف الإسلام

تصميم الغلاف : عبير محمد

تدقيق لغوي : أحمد ننناوي

رقم الإيداع : 03665

الترقيم الدولي : 978-977-6689-07-7

سنة النشر : 2019

الطبعة : الثانية

عدد الصفحات : 160

٩ شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين
بجوار مدارس حسام الدين الخاصة . فيصل . الجيزة
موبايل: ٠١٠٦١٨١٣٣٤٥ / ٠١١٢٦٠٢٦٦٩١ / ٠١٠٠٩٨٢٣٩٨٤

جميع الحقوق محفوظة ©

إهداءٌ أول..

إليك **أبي**، إليك أنت.. يا مَن شكلتَ شخصيتي وهذبتَ أفكاري، وأشعرتني دومًا بأني أستطيع، أهديك أولى رواياتي.. علّها تصلك في عالمك الآخر وأنت بخير حال.

أنتظر زيارتك لي وسط أصداء الحلم.. نبحر معًا بين أمواجه العالية، يصيبنا رذاذ همساته بينما تخبرني برأيك فيما قرأته، ولكن رجاءً، لا ترفق بي كعادتك، أريد رأيك كاملًا غير منقوص.. أعلم أنك أردتني أستاذة بكلية الزراعة، وعندما كنتَ تهبط بسقف طموحاتك قليلًا كنتَ تتخيلني مهندسة زراعية تمتلك بيتًا خاصًا بها يجمعنا سويًّا، تحيطه مزروعات خضراء من كل جانب... نجلس هناك بينما يميل قرص الشمس نحو المغيب.. نحتسي أكوابًا من الشاي الأخضر وأنت تخبرني بحكايات جديدة عن تاريخ مصرنا القديم، أو نزجي الوقت بأحاديث حرب الاستنزاف التي شاركتَ فيها، أو نتجاذب أبياتًا شعرية معًا.. ولكنه القدر قد أبى علينا ذلك.. رحلتَ مبكرًا فلم أستطع أن أحقق لك جزءًا من أحلامك، ولكن ها أنا قد حققتُ حلميَ الخاص.. أعلم أنك راضٍ عني، وأنك فخور بي كما كنتَ دائمًا.

ابنتك المحبة

عبير مصطفى

إهداءٌ ثانٍ..

إلى حبيبتي، وشريكتي، وصديقتي الجميلة **فاتن سعد..**

لـولا إيمانكِ بي ما خرجت هـذه الرواية إلى النـور، حَلُمنا بها معًا طوال سبعة أشهر كاملة، وانتظرناها سويًّا وكأنها طفلنا الأول، كنـتُ كلما هممتُ بالتكاسـل عنهـا.. أجدكِ إلى جانبـي، تحفزينني وتدعميننـي وتدفعينني إلى المُضي قدمًا في سـبيل اكتمال هذا الحلم، لـــم تحتج أي منّا لأن تشـكر الأخرى في أي وقت سـابق، ولكن.. فلتسـمحي لي اليـوم بأن أقـدم لكِ شـكرًا من نوعٍ آخر.. شـكري لـكِ حبيبتـي هـو أن أهديـكِ هـذه الرواية التـي بين يديـكِ الآن، أعلـم قدر ذلك لديكِ، وأثق بأن عينيـكِ تدمعان فرحًا بينما تقرأين هـذه الكلـمات، لا بأس بتلـك الدموع حبيبتي ما دامـت تقودنا إلى السعادة.. أحبكِ بحجم هذا الكون.

عبير مصطفى

الفصل الأول

هـا هو الفجر قـد أقبل من بعيـد متدثـرًا بعباءته السرمديـة.. يقطع سـاحات الكون، لابد أنه هو، وإلا.. فلِمَ تحضرت السماء هكذا وجهزت العدة اسـتعدادًا لشـق صفحة الليل؟ وها هي سارة قد استيقظت كعادتها كل يوم قبل أن يخطو الفجر خطواته الأولى لاستنبات أول شعاع للضوء، لـم تدر حقًا كيف تفعل ذلك الأمر بشكل يومي؟ وكأن ساعتها البيلوجية تمتلك جهازًا خاصًا بها ينبهها للاستيقاظ قرب قدومه.. فتحت عينيها في هدوء وظلت سـاكنة في مكانها لفترة وجيزة، ثم التفتت تنظر جهة آسر.. زوجها منذ ما يقرب من تسعة أعوام، اعتادت كل صباح عند استيقاظها التفـرس في ملامحـه لبرهة من الوقت، ما زالت تشـعر نحـوه بالخواء.. لا شيء سـوى الخواء، ففي حقيقـة الأمر تلك هي الحالـة المثلى التي جمعتهما معًا لأعوام طوال.

لطالما تساءلت.. لِمَ هو على هذا النحو؟ أو ربما كان الأجدر بها أن تتساءل لِمَ هي على هذا النحو؟ لِمَ لم تستطع أن تعتاده كحال أغلب الزوجات نحو أزواجهن؟ ولِمَ وهبها الله هذا العقل الذي يختلف كلية عن غالبية النساء؟ لا تعلم حقًا، إنما كل ما تعلمه أنها لم تطمح يومًا فيما يطمحن إليه.. لم تصبُ نحو الأفضل في كل شيء كمعظم قريناتها، فجل ما كانت ترجوه هو أن يهبها الله شخصًا يحبها لنفسها ويتقبلها كما هي.. يقرأ ما بين سطور روحها بسلاسة، وآسر ليس كذلك على الإطلاق، لم يكن كذلك.. ولن يكون، ماهر هو فقط في فنون الحسابات والأرقام، عملي لأقصى درجة، حتى عندما يجمعهما فراش واحد في علاقتهما الحميمية يكون عمليًّا أيضًا، يعرف ما يريده منها جيدًا.. ويحصل عليه، يصوب سهامه كرامٍ محترف؛ لينال غنيمته وكفى، وكأنهما وسط الأحراش.. وهي غزالة صغيرة أطبق فخ الصياد على قدميها قبل أن تطالها رصاصة الرحمة التي لا تملك غير الاستسلام لها؛ فتنتظرها في خنوع نازف.

آسر.. يعرف جيدًا كيف يتخذها أسيرة لديه كلما أراد، ولكنه ليس أسرًا يرضاه قلبها وتُذعن له ثكنات الروح، إنما هو أسر مادي ملموس له فقط، يُرضي به مفردات عالمه، وتطرب له خلايا نفسه، أما عنها هي.. فهو لم يهتم يومًا بأحاسيسها كأنثى، ولم يحاول إبداء الاهتمام أو مجرد

التظاهـر بـه كي يرضيها.. ولِـمَ يفعل من الأسـاس وهو سـعيد هكذا في عالمه الخاص؟ يدور في كونٍ من صنع يديه، كون تسطع عليه نهارًا شمس أرقـام البنـوك والحسـابات المنتظمة، لا تظله سـحابات الحـس، ولا تمطر فوق روابيه مياه المشـاعر، ولا يخترق قمر الونس ضواحي ربوعه المعتمة، قانع هو بذاك العالم ولا يحتاج لأحدٍ سوى ذاته.

شـق سكون الليل في تلك اللحظة صوت مؤذن المسجد القريب من البيـت؛ معلنًـا «الله أكـبر».. أغمضت عينيها للحظة واستنشـقت خلالها حلاوة النداء.. ثم نهضت لتتوضأ وتلحق بموعدها مع الله.

* * * * *

انتهت سارة من إعداد طعام الإفطار وتجهيز المائدة وجلست بانتظاره كعادتهـا، بينـما كان آسر قد تجهز مبكرًا اليـوم للخروج إلى عمله في شركة استيراد قطع غيار السيارات التي يملكها.. لابد أن لديه اجتماع مهم جعله يتعجـل النزول، فهو معتاد على تناول طعام الإفطار ومتابعة أخبار العمل لمـا يزيد على السـاعة أولًا قبل أن يرتدي ملابسـه اسـتعدادًا للخروج، مر أمامها وهي جالسـة تنتظره ككل يوم، سـحب كرسيًّا وجلس دون إلقاء تحيـة الصباح عليها، حسـنًا.. فهي معتادة على ذلك عـلى أي حال، تناول القدر اليسـير من الطعـام وهو منهمك في مطالعة هاتفـه الجوال للاطلاع

عـلى آخـر أخبار البورصة، نهض مسرعًـا ميممًا وجهه بعيـدًا عنها، تناول حقيبتـه الجلديـة التي يحتفظ فيهـا بأوراق عملـه، ودون أن يلتفت صوبها ألقى إليها بجملته الأثيرة إلى نفسـه: لن أتأخر اليوم.. ابتسـمت في مرارة وهزت رأسـها يمينًا ويسـارًا وكأنها تحـاول إخراج تصرفـه الروتيني من داخلهـا.. وكالعادة لـم تُحـر جوابًا؛ فهو بطبيعة الحال لا يلاحظ وجودها بالمرة إلا عندما يرغب في ذلك.

نظـرت إلى سـاعة الحائـط التـي أعلنـت الثامنـة والنصـف صباحًا، حدثتهـا نفسـها بأنـه لابد أن تكـون إيـمان صديقتها قد انتهـت من تجهيز ابنتيهـا للخروج إلى المدرسـة منذ مـا يزيد على نصف السـاعة.. أسرعت لتحضر هاتفها لتحادث صديقتها المقربة إلى قلبها.

أتاهـا صوت إيمان الحنون عبر الهاتـف.. فبادرتها قائلة: صباح جميل كمثلك حبيبتي.

— صباحك سكر سارة الحبيبة.. كيف الأحوال؟

— بخير..

— بخير.. حسـنًا، لِـمَ أشـعر إذًا أن تلك الكلمة تخفـي وراءها الكثير من الأحداث؟

— صدقيني حبيبتي.. أنا بخير حال.

— لـن نتحدث على الهاتف عـلى أي حال.. ما رأيك لـو تقابلنا اليوم عند الظهيرة؟

لقد اشتقت إليك كثيرًا سارة.

— وأنـا أيضًـا اشـتقت إليك كثيرًا إيـمان.. وكنتُ سـأطلب منكِ نفس المطلب.

— حسـنًا.. فلنلتقِ بذلك المطعم قرب مدرسـة ملك وجويرية في تمام الثانية عشر ظهرًا.

— حسنًا حبيبتي.. أستودعك الله.

الفصل الثاني

كانت السـاعة تقـترب من الحادية عـشرة والنصف صباحًـا عندما وصلت سـارة إلى ذلـك المطعـم، بـدَرت بالحضـور عـن الموعـد المـبرم بينهـا وبين صديقتها، كانت تحتاج إلى الخروج من المنزل والتجول قليلًا، لطالما شعرت بأنهـا عصفـور حبيس بين قضبـان القفص، كانت جدران المنـزل تمثل تلك القضبان بالنسـبة إليها، لذلك كانت تتحـين الفرصة كلما تأتت لها للتحليق بجناحيها بعيدًا عن ذلك السجن، اتجهت إلى منضدتها المعهودة التي اعتادتا الجلـوس حولها، يكاد المكان يخلو من الزبائن في مثل هذا الوقت من النهار، جاءها النادل وحياها وسألها عما تطلب، فطلبت كوبًا من الحليب.

ابتسم النادل لها قائلًا: كوب من الحليب.. كالعادة سيدتي.

أجابته بابتسامة مشرقة: أجل.. كالعادة.

نظرت إلى المدرسة المجاورة من خلال زجاج المطعم وابتسمت في حنان وتخيلت ملك وجويرية كيف تقضيان يومهما في المدرسة، يا الله! لكم تحبهما ملءَ قلبها قدر حبها لأمهما، صديقتها الأثيرة إلى نفسها.. إيمان.

أبحرت مع الذكريات.. ارتحل بها الموج بعيدًا في نهر الزمن، ها هي في المرحلة الإعدادية.. إيمان تنتقل مع أسرتها إلى الحي الذي تقطن به سارة مع والديها وشقيقها الوحيد معاذ.. انسجامهما معًا منذ اللحظة الأولى، توافقهما في الصفات، تلازمهما طوال فترة المراهقة، موجة ذكرى أخرى تتلقفها وتلقي بها حيث أسوار الجامعة.. إيمان أمامها تعلن عن رغبتها في الالتحاق بكلية التجارة، بينما تصر هي على تقديم أوراقها إلى كلية الآداب قسم اللغة العربية، إيمان تستحلفها ألا تفعل «قدّمي أوراقكِ معي سارة؛ كي نظل سويًّا كما اعتدنا» تجيبها بابتسامة حنونة «أنا لا أحب كل تلك الأرقام والحسابات إيمان، لن نفترق.. صدقيني، ثم إننا سنظل معًا.. ألا يكفي أننا بالحرم الجامعي نفسه؟» شيءٌ نديّ لامس وجنتها في هذا الوقت، فرفعت يدها تتلمسه، لم تدر أنها موجة ذكرى أخرى قد أصابها رذاذها، ها هي تحط بها حيث الذكرى الأعظم في تاريخ الوجدان، عندما لاح لهما الحب محلقًا في سماء الحلم وزارهما طيفه في الوقت نفسه، يا الله! وكأن الأقدار تأبى إلا أن تجمعهما سويًا، تتوالى مشاهد الذكرى.. إيمان تحب رامي زميلها بالكلية نفسها وهو يكبرها بعامين دراسيين

بينما سارة تحب نبيل، صديق رامي المقرب والذي يدرس معه بالصف الدراسي نفسه، ها هو قارب السعادة قادم ليستقلوه جميعًا، يتعاهدون على الزواج في اليوم نفسه.. يقسمون على ذلك، رامي ونبيل يتخرجان من الجامعة، سرعان ما تخطب إيمان إلى رامي ثم يتزوجان وهي في السنة النهائية فتشرق شمس حياتهما سويًا، بينما تُعتم سموات سارة.. هنا تنزف الذكرى قطراتها؛ فيصطبغ لون الموج، والدها يرفض نبيل.. يعلن أنه غير جدير بابنته، تتمسك سارة بحبها؛ فيعلو صوت والدها «إنه غير جدير بكِ» يجيبه قلبها «ولكني أحبه» يزداد إصرارًا «لن يوفر لكِ المستوى الذي اعتدتِ عليه، أنت درة نادرة لا يليق لكِ الارتباط بمثله» بضعة أعاصير تضرب استقرار البيت ثم ترضخ لها في النهاية كعادتها.. نبيل يرتحل إلى غير رجعة، ويتوالى نهر حياتها في الجريان.

قطع يم ذكرياتها قدوم إيمان قائلة لها في مرح: فيمن تهيم صديقتي الحبيبة؟

بشّ وجه سارة ونهضت تحتضنها بشوق قائلة: في ذكرياتنا معًا يا رفيقة العمر.

لفت نظر سارة كوب الحليب الذي وُضِع أمامها على المائدة والذي لم تشعر بالنادل عندما أحضره.. تبسمت إيمان لها في حنانٍ آسرٍ قائلة: كيف أحوالك حبيبتي؟ طمئنيني عليكِ.

نكست سارة رأسها في انكسار: أنا كما أنا.. وهو كما يريد أن يكون..

— سـارة حبيبتي.. لِـم لا تحاولين التقرب إليه قليلًا؟ تحدثي معه.. أخبريه بكل ما يدور بذات نفسكِ، صدقيني..

بترت إيمان عبارتها عندما رفعت لها سـارة عينين غارقتين في لجة من الدموع الحبيسـة، أخرستها تلك النظرة اللائمة من عيني صديقتها المقربة وكأنها تقول لها مستنكرة «وكأنكِ لا تعلمين».

ربتـت عـلى وجنتهـا تهدئها؛ فخرج صوت سـارة خفيضًا، كسـيرًا: أنـت تعلمين جيـدًا أني قد حاولـت كثيرًا التقـرب إليه، ولكـن محاولاتي كلها كانت تذهب هباءً، كنت دائمًا معه كمن تحاول انتزاع شـجرة باسقة متأصلـة جذورها مـن باطن الأرض، وكلما حاولـت جذبه تجاهي؛ ازداد تشـبثًا بأرضه، وكأنه يسـتمد من محـاولاتي تلك القـوة والثبات لاختراق طبقات تربة نفسه السفلية أكثر فأكثر..

انهار سد التماسك الذي كانت تتحصن خلفه؛ فتحررت أنهار دموعها وجـرت على وجنتيها في فيضان هادر منمهر يجرف ما قد يصادفه من اتزان مصطنع كانت تتسـتر به.. غلبها سـيل ذلك الفيضان فلم تسـتطع إتمام ما تريد قوله، صمتت إيمان لبعض الوقت لتمنحها الفرصة حتى تهدأ..

عدة دقائق استغرقها السيل ثم تنفست سارة بعدها بعمق، مسحت دموعها بأطراف أناملها، فبادرتها إيمان قائلة: هل هدأتِ قليلًا؟

— نعم.. أشعر بأني أفضل الآن.

— حبيبتي.. أنا ما قصدت أن أثير بنفسكِ الشجون، إنما كل ما أرجوه هو أن أراكِ سعيدة هانئة.

— إن ذلك لن يحدث قط، فكل ما كان يربطني به هو عمر طفلي الصغير، ومنذ رحل عن دنيانا وذلك الصدع الذي نشأ بيننا أخذ يتسع حتى أصبح هوة سحيقة ابتلعتنا سويًا..

صمتت قليلًا تلتقط أنفاسها ثم أكملت في شرود: قد مر عامان على رحيله، لا أنكر أني قد تقوقعت حول ذاتي لشهور، ولكن ذلك أمر طبيعي لمن تفقد طفلها الوحيد، أردتُ الطلاق وقتها لو تذكرين، ولكني تراجعت بناءً على نصائحكِ أنت ومعاذ شقيقي، ظننتما حينها أنه ربما لو رُزِقنا بطفل آخر فإن ذلك سيساهم في التقريب بيننا، حدث الحمل بعد ذلك مرتين كما تعلمين آخرها تلك المرة منذ ستة أشهر، ولكنه في كل مرة لا يكتمل دون أسباب طبية واضحة، وكأن الله لا يريد لي الارتباط به لأكثر من ذلك.. كان هو وقتها يتفنن في إشعاري بالتقصير وكأنني المتسببة في عدم الإنجاب، لكنه، والحق يقال، كان حريصًا أشد الحرص على نيل حقوقه كاملة دون الالتفات إلى مشاعري الثكلى.. صمتت لبرهة ثم التفتت نحو صديقتها قائلة في مرارة: أنت تعلمين أن علاقته بمريم شقيقته الوحيدة ضعيفة للغاية خاصة بعد أن هاجرت إلى كندا بصحبة زوجها وابنتها منذ ثلاثة أعوام، ولكن على الرغم من ذلك فإنه يتحدث معها عن أمور تخص عمله وتخصنا معًا كزوجين ولا يتحدث عنها معي أنا.

— أي أمور تلك؟

— سمعته منذ عدة أيام يخبرها بأنه عازم على إجراء عملية حقن مجهري لي بعدما ينتهي من تلك الصفقة التي يتجهز لها، أتصدقين ذلك؟ مريم تعرف أخبارعمله وتعرف ما حدده هو لمستقبلي وهي تقيم هناك بقارة أخرى، بينما أنا زوجته التي يقاسمها الفراش لا علم لي بأي من تلك الأمور، وكأن تلك العملية التي ينتوي إجراءها لي لا تخصني من قريب أو بعيد، أنا بالنسبة إليه شيء من ضمن الأشياء العديدة التي يمتلكها، والتي يرى أنه صاحب الحق الأوحد في تقرير كيفية انتفاعه بها.. فأي سخرية تلك؟

ربتت إيمان على يدها مواسية، ثم قالت محاولة تغير دفة الحديث: ما رأيكِ لو تمشينا قليلًا وتناولنا بعض المثلجات حتى يحين موعد خروج ملك وجويرية من المدرسة؟

أشرق وجه سارة لها بابتسامة حب كبيرة، وأومأت برأسها موافقة.

الفصل الثالث

وقفت سارة تنظر إلى انعكاس صورتها في مرآة حجرتها بالمنزل، أخذت تتأمل ملامحها في استغراب وكأنها لا تعرف تلك الأخرى التي تطل عليها من خلف لجين المرآة، حدثتها نفسها بأنها ما زالت كما هي.. جميلة، خلابة.. تأسر القلوب والأرواح قبل الأعين، ذات عينان عسليتان واسعتان، ووجه بيضاوي خمري اللون، يصنع مع لون عينيها وشعرها الضارب في سواد الليل لوحة فنية نادرة الوجود، ذات قوام ساحر وقد ممشوق.. وكأنها آية من آيات إبداع الخالق، أو كأنها أحد طرفي مغناطيس قوي وكل البشر هم الطرف الآخر، تجتذب الأنظار نحوها حيثما ذهبت في سهولة ويسر، تقع صورتها على الأعين موقع السحر، وتلمس روحها أنفس المحيطين بها كالندى إذ يعانق أوراق الأشجار في صباح يوم باكرٍ فيحييها بعد طول ممات، كل ذلك ظل على حالته كما هو ولم يتغير، اللهم إلا ذلك البريق المنبعث من عينيها.. فقد انطفأ نوره يوم رحل عمر وحيدها مودعًا هذه الحياة...

لطالما تساءلت... لِمَ لم تشعر ولو لمرة واحدة بنظرات الإعجاب في عيني آسر؟ لِمَ يبدو دائمًا وكأنه لا يراها؟ شردت وهي تفكر بذلك فلم تشعر به عندما عاد من الخارج، إلا عندما أقبل عليها يحتضنها من الخلف بقوة.. أجفلت وانتفضت بين ذراعيه، والتفتت إليه متسائلة في توتر: آسر.. متى عدت؟

— منذ قليل..

قالها ثم جذبها إليه بشدة معقبًا في لهفة: أنت جميلة جدًا اليوم.. بينما شفتاه تطوفان بوجهها حتى استقرتا أخيرًا فوق شفتيها، قبلها بنهم.. حاولت التملص منه فلم تفلح، طالت القبلة كثيرًا حتى شعرت بأنفاسها تكاد تتلاشى، أفلتت نفسها منه بصعوبة قائلة: أنت لا تراني جميلة إلا عندما تريدني في الفراش.

- وهل هناك وقت أفضل من ذلك لأراكِ به؟

جذبها إليه من جديد وأكمل قائلًا بينما يديه تعبثان بمحابس ثوبها في تمكن: هنا.. أنت ملكة متوجة على عرش قلبي.. وأشار بنظراته ناحية الفراش، حاولت جذب نفسها من بين يديه، لكنه كان قد تحول لإعصار شديد الضراوة، سيطرت عليه الرغبة بشدة فلم تستطع الفرار من بين جنباته، جردها من ملابسها أخيرًا، وحملها بين ذراعيه ككل مرة وألقاها على الفراش، وتخلص من ملابسه هو الآخر، ثم اجتاحها كالبركان.

* * * * *

— هلا أسرعت قليلًا سيدي بالله عليك.. سأتأخر عن الموعد.

— إنني أسير بأقصى سرعة مسموح لِيَ السير بها يا ابنتي.. لا تقلقي سنصل في الموعد بإذن الله.

أخذت سارة تنقل نظرها بين ساعتها والطريق في قلقٍ مشوبٍ بخوفٍ بدأ يتسلل إلى جميع أنحاء جسدها.. بدأت تحدث نفسها في لوم قائلة.. «كان لابد لي من النزول مبكرًا عن ذلك، لا أعلم ما الذي يؤخرني في كل مرة؟ لن ألحق به هكذا.. لن ألحق به».

تنفست في عمق وأسندت رأسها إلى الأريكة الخلفية لسيارة الأجرة التي تستقلها، لا يبدو أن تلك الأزمة المرورية ستنفك، تلفتت يمينًا ويسارًا وكأنها بصدد اتخاذ قرار حاسم، تملكتها الحيرة.. أتغادر السيارة وتذهب سيرًا على قدميها لتلحق بنبيل؟ أم تنتظر عل الزحام تنفك أوزاره؟ مالها بطيئة الحركة هكذا؟ وعقلها، ما له مشوش يتأخر في إصدار الإشارات لأعضائها؟ بحركات بطيئة نقدت السائق أجرته واستسمحته النزول ها هنا.

هي تعرف الطريق لذلك المقهى الذي اعتاد نبيل الجلوس به هنا بحي الحسين، تعلم عاداته جيدًا، ما زالت تذكرها رغم مرور كل تلك السنوات، لم تنس قط أنه يأتي ها هنا كل خميس لينعم بتلك الراحة

النفسية التي طالما حدثها عنها، وأعلمها أنه يجدها هنا في رحاب ذلك المقهى، ما زالت كلماته تتردد هناك بين أوداء عقلها «هنا يا سارة أجد السلام.. أنعم بالسكينة.. أحلق في سموات الحلم.. هنا يأتيني الوحي ليوشوش لي بأجمل كلمات الحب التي أكتبها تغزلًا بعينيك الجميلتين».

يا الله.. لم تنس كلماته قط، ولكن.. لتسرع قليلًا علها تلحق به.. سنوات طوال وهي تأتي إلى هنا لتلتقيه؛ عل الزمان ينصفها هذه المرة فتقابله، تريد أن تطلب منه السماح وأن تسأله العفو، ألا ليته يغفر لها عدم تمسكها بحبهما بالقدر الكافي، تهرول جهة المقهى.. ولكنها هرولة غريبة.. غير معتادة، حتى أنفاسها تخرج منها ببطء مستفز.. ها هي تقترب من حدود المقهى، تلمح تلك اللوحة المثبتة أعلاه والمدون عليها اسم «قهوة الحسين».. تنظر إليها بحب؛ فهنا يقبع حبيبها وتوأم روحها منذ بدء الخلق.. ها هو هناك.. حمدًا لله.

— نبيل..

تناديه بشوق... فلا يلتفت، ترفع صوتها قليلًا...

— نبييل..

يبدو وكأنه لا يسمعها..

— نبيييييل..

يلتفت ناحيتها دون أن ينظر إليها وكأنه لا يراها، كانت هناك غشاوة قد تكونت بينهما، غشاوة وكأنها سحب دخان، من أين تأتي كل سحب الدخان تلك يا تُرى؟ تناديه مرات ومرات حتى تنقطع أحبالها الصوتية رجاءً، ثم أخيرًا يخيل إليها أنه رآها.. نعم لقد رآها حقًا، وإلا فلِمَ تسمر في مكانه هكذا وكأنه قد صُدم؟ لدقيقة كاملة ظل كلاهما ينظر إلى الآخر في صمتٍ مترددٍ.. ما باله هكذا؟ أتُراه لم يسامحها بعد كل تلك الأعوام؟ أم تُراه قد أسقطها في جب النسيان؟ دقيقة مرت وكأنها دهر، ثم حسم هو أمره أخيرًا واستدار مبتعدًا عنها في الاتجاه الآخر، كأنه يخبرها أن طريقيهما مختلفين، وليؤكد تلك الفكرة التي بزغت في غياهب عقلها.. توقف والتفت ناحيتها، ألقى بنظرة خاوية إليها، ثم استكمل طريقه بينما تبتلعه سحب الدخان.

حاولت اللحاق به غير أنها انتفضت عند سماعها صوت آلة التنبيه الصادرة من تلك السيارة التي كادت أن تدهسها؛ فأجفلت وتراجعت إلى الخلف.. آلاف آلات التنبيه انطلقت صرخاتها مدوية في الوقت نفسه.. ثم ظهر ذاك الصوت الخافت قادمًا من مكان بعيد، بدأ يعلو رويدًا رويدًا حتى احتل كيانها بأكمله، وانتشلها من مكانها هناك حيث ذاك المقهى، بل إنه قد انتشلها من حي الحسين بأكمله؛ ليلقي بها في حجرة نومها وفوق سريرها.. إنه هاتفها الجوال يئن بإلحاح منذ ما يقرب من نصف الدقيقة.. انتفضت في نومها عند سماع صوته واستيقظت في إرهاق وكأنها كانت تعدو أميالًا في عالمها الحقيقي، كان الهاتف لا يزال يصدر رناته فأمسكته في وهن.. إنه معاذ

شـقيقهـا يتصل من البحـرين حيث يعمـل هنـاك، لن تستطيع التحدث إليه الآن، فلتهدأ قليلًا أولًا، تنفست بعمق ونهضت لتغسل وجهها علها تستفيق.

نظـرت لانعـكاس صورتها بمـرآة الحـمام في إرهاق وحدثتها نفسـها في شرود.. «إنـه حلـم آخر إذًا»، حلم تكررت شـخوصه، يتكرر مضمونه، ولا تتكـرر تفاصيلـه.. دائـمًا ما يأتيهـا نبيل في الحلـم وكأنه غاضب منهـا، حانق عليهـا، أحيانًـا يأتي وكأنـه لا يتذكرها؛ فيقتلهـا ذلك وتخنقها التسـاؤلات.. أحقًا قد نسـيها؟ ألا يحـاول تتبع أخبارها؟ هي تعلم بعـض أخباره من بضع كلـمات يلقيها زمـلاء الجامعة هنا وهناك إذا ما تصـادف والتقت أحدهم، أو مـن إيمان إذا ما أفلت لسـانها عرضًا لبضع مرات، فعـلى الرغم من أن نبيل ما زال عـلى صلة وتيدة برامي زوج إيمان، لكنهـا تعلم أن صديقتها تتجنب ذكر اسـمه أمامها، وكأنها توقن أنه ما زال ممتلكًا لقلب سـارة، علمت أن نبيل قد تزوج بعدها بسـنوات، وأنه رُزِق بطفلة صغيرة ثم حباه الله طفلًا آخر بعدها بعامـين كاملين، أسـماهما نـدى ونائل.. تمامًا كـما كانا قد اتفقا معًـا، فقد كانا يحلـمان بـأن يرزقهما الله طفلًا وطفلة يطلقا عليهما هذين الاسـمين، كم كانت تستعذب نطق حروف اسميهما بين شفتيها.. (نائل نبيل وندى نبيل) هي من قامت باختيار الاسـمين، أوكل لها هو ذلك كما أوكل لها اختيار كل ركن من أركان شقة أحلامهما، يا الله! كم بعيدة هي جنة الذكريات تلك!

دفنت وجهها بين راحتيها وأجهشـت بالبكاء، هي لا تريد التفكير فيه، ولكنـه يأتيهـا زائرًا بعـالم الأحلام، وهي لا تملك من أمر نفسـها شـيئًا في هذا

العـالم، يعلـم الله كم حاولت إخراجه من داخلها، فـإذا ما جاءها طيفه محلقًا، مناديًا.. أبعدته سريعًا عن تفكيرها، وإذا ما علمت أنها قد تلتقيه في مكان ما.. تجنبـت الذهـاب إلى هناك، حتى في بعض المناسـبات العائليـة الخاصة بإيمان، كعيد ميلاد ملك أو جويرية، هي تذكر جيدًا أن إيمان كانت تتعمد ذِكر أسماء المدعويـن أمامها لتخبرها أنه قادم إلى الحفل، تلتقط سـارة طرف الخيط الذي تلقيه صديقتها؛ فتتعلل وقتها بأي ظرف طارىء لتتهرب من الحضور، كانت تضـع نصـب عينيها دائمًا أنها زوجة لرجل آخـر، ولا يجوز لها مجرد التفكير في غيره، فتحاول التشبث بزوجها أكثر فأكثر لإنجاح أمريهما معًا.. ولكن آسر هو من كان يأبى عليها إنجاح الأمر، كثيرًا ما حاولت جذبه إلى عالمها؛ ففشلت.. حاولت النفاذ إلى عالمه؛ فلم تفلح.. فهي لا تجيد لغة الأرقام وألاعيب السوق والبورصـة التـي يُغـرق نفسـه داخل براثنهـا طوال يومـه، ثم حاولـت إيجاد أرضية مشـتركة تجمعهما سـويًا؛ فـما كان منه إلا أن أجهـض محاولاتها جميعًا، ثـم جاءها عمر كهديـة تعويضية من الله فانتشـلها من يم أحزانها السـحيق، كان هـو كل عالمهـا، أفرغت فيه كل أحاسيسـها المرهفة، كل مشـاعرها كأم وكأنثـى وكصديقـة، كان بالنسـبة لها بكل هـذا العالم، ثم اختـاره الله ليرحل عنها هو الآخر، ما زالت ذكرى رحيله تحتل فضاء الوقت وتسـتعمر شـغاف دقائقه وتسـتوطن نزف ثوانيه، تنهال عليها سـهام لحظاتـه الأخيرة، أول أيام عامه الدراسي بالصـف الأول.. موعد الانصراف، انتظارها له بالجهة المقابلة

أمام المدرسة.. هي لم تخبره بقدومها، كانت ترغب في مفاجأته.. ليتها لم تفعل، ها هم التلاميذ يتوافدون من تلك البوابة لاستقلال الحافلات، وها هو صغيرها عمر يظهر بينهم، يمسك بيد صديقه، يسيران خلف المشرفة، إنه يراها.. يلوح لها في سعادة، يُفلت يد صديقه، يندفع جهتها.. يبتسم لها قلبه باسطًا ذراعيه باتساع المدى، تندفع جهته هي الأخرى، ليست سارة هي التي تندفع، إنما هي تلك السيارة التي ظهرت من العدم، لحظة فارقة تجمد خلالها الزمن، صغيرها عمر والسيارة يتصارعان في السباق.. عمر.. السيارة.. عمر.. السيارة، رجحت كفة السيارة، لم تدر إلا وعجلات السيارة تحتك بأرضية الطريق في صريرٍ يخلع الأنفاس، تصطدم به في جنون.. صغيرها ممدد على الأرض.. مضرج بالدماء، لم يمهلها الوقت فرصة لتفتديه.. لتصرخ به أن ينتبه.. يجتاحها هول الذهول، ترتمي عليه.. تنتحب، تناديه فلا يجيب، علها غفوة.. إغماءة، ترفع نداءاتها أكثر، تهزه برفق.. فلا يستجيب، يتجمع حولها المارة وبعض المعلمين، يحاولون جذبها فتتشبث به، يزداد جذبهم لها فتزداد تشبثًا.. تنتحب، تتلاشى الموجودات من حولها.. ثم يغيب وعيها عن الوجود، زادت حدة نحيبها عندما ألقتها أمواج الذكريات على شاطئ فقدها لطفلها الوحيد، أزمعت أن تستحم علّ المياه تزيل عنها أثمال الوجع، نفضت عنها ملابسها، وخطت داخل حوض الاستحمام.

تحت شلال المياه المنساب تقف مغمضة العينين، تزفر آهاتها في ولع، تختلط دموع عينيها بقطرات المياه المتدفقة، تنفلت منها آهة جاهدت كي

تخفيها داخلها، تتوالى أمام عينيها مشاهد الحلم الذي جمعها مع نبيل منذ قليل.. صور متتالية يقطعها تتابع القطرات وكأنها ومضات.. يخترق التتابع مشاهد أخرى من حياتها مع آسر.. صلفه، أنانيته، غروره، إهماله لها، أيام عمرها التي أُهدرت بين يديه، تنهدت وقد حسمت أمرها، لابد لها من اتخاذ قرار حاسم في حياتها، فلا يمكنها الاستمرار هكذا أبدًا.

ارتدت ملابسها ومشطت شعرها لأعلى على شكل ذيل فرس، وأمسكت بالهاتف لتتصل بشقيقها معاذ.. بضع رنات ثم أتاها صوته الحبيب قائلًا في مرح: وأخيرًا تكرمت أميرتي الصغيرة وتنازلت وقررت أن تحدثني.

انتقل إليها شلال المرح المتدفق من صوته فأجابته بمرح مماثل: أميرتك كانت نائمة غارقة في عالم الأحلام، بينما أتيت أنت ورناتك المزعجة وأخرجتها من ذلك العالم الرائع كعادتك.

— يا الله! كم أنا سمج حقًا! كيف لي أن أُخرج أميرتي الجميلة من عالم الأحلام؟ أتعلمين؟ يحق لكِ مخاصمتي وعدم التحدث إليَ حتى لا أعود لتلك الفعلة الشنعاء مرة أخرى.

ضحكت في فرح حقيقي ثم سألته عن أحواله وأحوال زوجته منى وصغيرهما أحمد، طمأنها عليهما وسألها بدوره عن أحوالها، فأجابته بأنها بخير وأخبرته أنها تريد مناقشته في أمر مهم، ولكن الهاتف لا يصلح لمثل تلك المناقشة، استحثها القول فأفلتت منه بأن سألته في دلال: متى موعد إجازتك السنوية معاذ؟ لقد اشتقت إليك كثيرًا.

— أنا أيضًا اشـتقت إليكِ كثيرًا حبيبتي.. بضع أسابيع وأكون عندكِ هناك بمصر.. اهتمي بأحوالكِ من أجلي سارة، عِديني بذلك.

— أعدك معاذ.. وأنت أيضًا اعتن بنفسك واعتن بمنى وبأحمد حبيبي الصغير

— أستودعكِ الله حبيبتي.

— أستودعك الله معاذ.

الفصل الرابع

في أحد الشوارع الرئيسية لحي شبرا، وقُرب تلك البناية المتوسطة الارتفاع تتباطىء تلك السيارة الفارهة ذات اللون الأسود، ثم تتوقف بجانب البناية.. تنزل منها سارة مرتدية بنطالًا ضيقًا أسود اللون، ومعطفًا متوسط الطول يماثل في لونه لون البنطال، لطالما أحبت سارة اللون الأسود، كانت دائمًا ما تسمعهم يصفون اللون الأزرق بالغموض، ولكنها كانت ترى أن الأسود يليق به الغموض أكثر من غيره، ففي نظرها هو سيد الألوان، لونٌ قيمٌ هو.. حاسمٌ، صريحٌ، لا يقبل بأنصاف الحلول، لا يحمل تردد اللون السماوي، ولا يترك بنفسها أثرًا مؤلمًا كاللون الأصفر، ليس مقتحمًا للعين كصديقه الأحمر، ولا فاتحًا يسمح بنفاذ البشر والقلوب والأشعة على حدٍ سواء كالأبيض، أغلقت السيارة خلفها ودلفت إلى البناية، صوت كعبي حذائها يدق الأرض في خفوت.. في خجل، كعادتها هادئة في كل شيء، حتي في طريقة سيرها، وكأنها تخشى أن تخدش مشاعر درجات السلم بخطواتها، أو كأنها تستأذنها قبل أن تطأها بقدميها.

صعدت طابقين ثم اتجهت يسارًا نحو الشقة الوحيدة بذلك الجانب حيث تقطن خالتها السيدة إحسان مع وائل ونور ابني خالتها، ضغطت على الجرس ثم طرقت الباب ثلاث طرقات متتالية كعادتها كلما أتت إلى هنا، لم تمض لحظات حتى أطل وجه وائل من فرجة الباب مرحبًا بها: أهلًا سارة.. لم تتأخري عن موعدنا كعادتكِ دائمًا.

قالها ثم أطلق في وجهها ابتسامته الصافية التي تكاد تحتضنها في كل مرة تصافح فيها عيناه قسمات وجهها.

هش له وجهها قائلة وهي تخطو إلى الداخل: وأنت أيضًا باسم كعادتك دائمًا وائل.

صمتت قليلًا ثم أردفت: أتعلم؟ كلما رأيتك حسبت أن الزمن لم يقذفنا في تياره إلى الأمام طيلة تلك الأعوام.. أشعر أننا لا نزال على مقاعد الدراسة، وأنت تسبقني بثلاث سنوات دراسية، وأني ما زلت ألجأ إليك لتشرح لي ما فاتني من دروس تغيبت عنها.

جذب هو نفسه من تدفق جريان نهر الذكريات الذي ألقت به بين ضفتيه بتنهيدة جاهد ليكتمها، سألته بينما يتوغلان داخل الشقة: كيف حال خالتي اليوم وائل؟ عساها بخير.

— سترينها الآن سارة، فهي مستيقظة لحسن الحظ.

— حسنًا.. لأنتهز الفرصة إذًا وأطمئن عليها.

انتظرته للحظات بالردهة خارج غرفة خالتها، حتى سمعت صوته يناديها ويدعوها إلى الدخول، أمالت رأسها داخل الغرفة كما تعودت أن تفعل كلما همت برؤية الخالة إحسان، وابتسمت لها في ودٍ محببٍ قائلة: كيف حال أمي الثانية اليوم؟

نظرت لها خالتها في فرحٍ لائمٍ وهي تقول: لو كنت حقًا أمكِ ما كنتِ تأخرتِ عني كل تلك المدة.

أسرعت سارة نحوها تحتضن رأسها بحب وتقبل جبهتها، أجلستها السيدة إحسان بجوارها على السرير قائلة: اشتقت إليكِ كثيرًا حبيبتي ولكن يبدو أنكِ لم تشتاقي إليَ، أو أن قلبكِ قد اعتاد الابتعاد عن أمكِ إحسان.

اغرورقت عينا سارة بالدموع واحتضنت خالتها بشدة قائلة، بينما صوتها يغالب أمواج العَبرات: وكيف لي أن أبتعد عنكِ يا أمي؟ وأنى لي بتلك المقدرة؟ أعلم أن شفتيكِ هما اللتان تتكلمان بينما قلبكِ لا يصدق أن ابنتكِ سارة تستطيع الابتعاد عنكِ.

— وها أنتِ قد فعلتِها سارة.

— إنما هي مشاغل الحياة قد ألهتني عنكِ قليلًا، ولكن أقسم لكِ أنكِ ما غبتِ عن قلبي ولا عن خاطري ولو للحظات.

ربتت السيدة إحسان على كتفها في حنان شديد، وجذبتها إلى أحضانها مرة أخرى قائلة: فلتسامحيني سارة إن كنتُ قسوت عليكِ قليلًا.. ربما لستِ ابنتي التي أنجبتها، ولكنك ابنة كريمة شقيقتي الوحيدة ـ رحمها الله ـ ودائمًا ما كان قلبي يشعر بأنكِ ابنة روحي، حملتك بقلبي عوضًا عن أحشائي، وأرضعتكِ من حناني، لذا فعندما تغيبين عني يكاد الشوق إليكِ يقتلني.

— لا تقولي ذلك يا أمي، فأنا التي يجب أن تطلب منكِ السماح على تقصيري في حقكِ طوال الأسبوعين المنصرمين، ولكني أعدكِ أنني لن أسمح لشيء أيًّا كان بأن يلهيني عن زيارة أمي إحسان حبيبة قلبي.

كان وائل يراقبهما بينما ابتسامة حنوٍ لا تغادر وجهه.. ينقل نظراته بين امرأتين من أحب النساء إلى قلبه في هذا الوجود وتشاركهما في هذا الحب نور شقيقته الوحيدة، كان فرحًا برؤيتهما معًا.. تنحنح في مرح قائلًا: حسنًا يا أم وائل.. أراكِ قد نسيتِ ابنك وائل عندما جاءتكِ سارة.

أدارت السيدة إحسان وجهها ناحيته قائلة: لا تقل ذلك حبيبي.. فأنتَ وسارة ونور أغلى ما أمتلك في هذا الوجود.

— حسنًا يا أمي.. سأستعير منكِ سارة لبعض الوقت ولتستريحي أنتِ قليلًا، فأنا أشعر أننا قد أرهقناكِ بالحديث طويلًا اليوم.

— لا تتعبُ نفسي من التحدث معكما أبدًا حبيبي.

ثم نظرت إلى سارة قائلة: سأغفو قليلًا سارة.. ولكن عِديني أنكِ ستأتين لزيارتي كثيرًا حبيبتي، أريد أن أشبع من رؤية وجهكِ الحبيب قبل أن يأذن الرحيل.

اقشعر بدن سارة من تلك العبارة فأسرعت قائلة: بالله عليكِ لا تذكري ذلك الأمر مرة أخرى، بارك الله لنا في عمركِ ولا حرمنا منكِ أبدًا أمي.

— حسنًا حبيبتي.. ولكنكِ لم تمنحيني وعدكِ حتى الآن.

— أعدكِ بألا أنقطع عن زيارتكِ لفترة طويلة مرة أخرى.

احتضنتها سارة مودعة واستأذنت هي ووائل، توجها لردهة المنزل ودعاها وائل إلى الجلوس فسألته، بينما تضع حقيبتها بجانبها على الأريكة: أين هي نور؟ لم أرها منذ جئت.

— حضرت من الجامعة منذ ما يقرب من الساعة، اطمأنت على أمي ودخلت لتغفو قليلًا، أنتِ تعلمين أنها تتعب كثيرًا هذه الأيام بعد اشتداد المرض على أمي، خاصة أنها في السنة النهائية من الجامعة.

— أعانها الله على ما هي فيه، ووهبك القدرة على مواصلة رحلة العلاج مع خالتي أنت ونور.

— ولكنها طلبت مني إيقاظها عندما تحضرين.

— لا عليك وائـل، فلنتركها لتنعم ببعض الراحة، صمتت للحظات ثم أردفت.. ما بالها خالتي؟ أراها على غير ما يرام.

— أنتِ تعلمين أنها في مرحلة متقدمة من مرض السرطان، يقول الأطباء إن جسدها بدأ يستعصي على العلاج، ولـم يعد يستجيب للأدوية.

— وائـل.. قلـت لك من قبـل وأكررهـا عليك مرة أخـرى الآن، إن كانـت هنـاك فرصـة في الخـارج لعلاج خالتـي فلا تحمل همًـا، أنا سأتكفل بكل المصاريف و...

لم يدعهـا تكمل جملتها، رفع يده أمام وجههـا وكأنه يغلق باب الحوار في هذا الأمر قائلًا: أخبرتكِ من قبل سارة بألا تحدثيني في ذلك مرة أخرى.

— لا أدري لِـمَ أنت متعنت هكذا؟

— ليـس تعنتًا على الإطـلاق، ولكني لا أقبل بأن يدفع شـخص آخر قرشًـا واحدًا في علاج والدتي، أيًّا كانت درجة قرابة هذا الشخص مني.. وأنتِ تعلمين ذلك جيدًا، فلِـمَ إذًا نكرر الحديث فيه؟

— أتعلم وائل؟ لطالما أحسستك أخي حقًا.. تمامًا كمعاذ، وأثق أنك تدرك تمام الإدراك عمق إحسـاسي نحـو خالتي، وتعلم قدر حبي الشديد لها وأنها بمثابة أمي.. ولكنك تلقي بأحاسيسي هذه عرض الحائط بإصرارك على موقفك هذا.

تلاحقت أنفاسها مع تلاحق كلماتها، فسكتت لهنيهة ثم أردفت: وكأنك تخبرني بطريقة مهذبة أني لا أُمتُ لعائلتك بأي صلة، وكأنك تقول لي أنت غريبة عني وأمي ليست أمًّا لكِ.

خفض رأسه في قنوط وأغمض عينيه، ثم فتحهما من جديد بينما يزفر أنفاسه قائلًا: أنت تعلمين جيدًا أن ما تقولينه عارٍ تمامًا من الصحة، وأنكِ لستِ ابنة خالتي وصديقتي فقط، بل أنت فردٌ من هذه العائلة، ولكن حتى إن كنتِ شقيقتي الشرعية فلن أقبل بأن تتكفلي بعلاج أمي؛ فأنا رجل شرقي حار الدماء لا يقبل على نفسه ذلك.

أدارت وجهها عنه؛ فسكت قليلًا ثم أكمل: كما أن الأطباء أكدوا أنه ليس هناك أدنى أمل من سفرها إلى الخارج الآن، لقد تم اكتشاف المرض في مرحلة متقدمة وقد حاولوا قدر استطاعتهم محاصرته، ولكنه كان عصيًا عليهم، هي في مراحلها الأخيرة الآن، كل ما نملكه لها هو الدعاء.

لمست يده مواسية واعتذرت له عن انفعالها عليه في الكلام قليلًا، فابتسم لها سائلًا إياها عن أحوالها.

ردت ابتسامته بمثلها قائلة في خفوت: دعك مني الآن، فأنا أحوالي كما هي.. المهم الآن أن نطمئن على خالتي.

ثم نظرت إلى ساعة يدها معلنة أنها تأخرت ووجب عليها الرحيل، ودعها حتى باب المنزل واعدًا إياها بالاتصال بها للاطمئنان عليها، أقرأته

السلام لنور وخرجت من المنزل، أغلق الباب خلفها وشهق أنفاسه في قوة، يـا الله! لقد جاهد كثيرًا هذه المـرة للحفاظ على نبض قلبه منخفضًا حتى لا يعلن عن نفسه في ضجيج ويصل إلى أسماعها، فقد اشتاق إليها كثيرًا طوال هـذه المـدة، هز رأسـه وكأنما يطرد صورتهـا من داخله، ونظـر جهة حجرة والدته في أسى، ثم رفع وجهه لأعلى بينما عيناه تبتهلان إلى الله!.

الفصل الخامس

بخطـوات سريعة متلاحقة خطا رامي إلى داخل العمارة السـكنية التي يقطـن بها مع زوجته إيمان، اتجه ناحيـة المصعد الكهربي، ونظر بضيق لتلك اللافتـة الورقية المثبتة عليه والتـي مضمونها أن المصعد معطل، «تبًا».. قالها رامي في ضيق ثم اتجه صوب الدَرج، صعد في خطوات متعجلة حتى وصل إلى وجهتـه بالطابق الثالث، أخـرج المفتاح وأداره في ثقب الباب المخصص له ثم دلف إلى الشـقة، لـم يكن من عاداته فعل ذلك الأمر، كان يفضل أن يدق جرس الباب حتى تفتح له إيمان باب الشقة بنفسها، تستقبله بابتسامة اشـتياق وتقبله على وجنتيه وتخبره أنهـا افتقدته طوال اليوم، لـم تتغير تلك العادة طوال سنوات زواجهما العشر، اللهم إلا بضع مرات قلائل لا تتعدى أصابـع اليد الواحـدة، ولكنه كان متوترًا اليوم.. بل إنه كان حانقًا، ليس في مزاج يسمح له بطرق الباب وانتظار إيمان لتأتي وتستقبله.

ألقى حقيبته وسلسلة المفاتيح الخاصة به فوق الأريكة بالردهة ودخل مباشرة إلى حجرة نومه، كان يحتاج لالتقاط الأنفاس قليلًا قبل أن يتحدث

مع إيمان، كانت هي في الحجرة المجاورة مع الفتاتين وشعرت بوقع خطواته داخل الدار وتملكتها الدهشة من دخوله هكذا دون طرق الباب؛ فذهبت إليه مستطلعة.. كان يجلس بإنهاك فوق السرير، فبادرته قائلة: رامي! متى أتيت حبيبي؟

— وصلت منذ دقيقتين.

— ولِمَ لم تطرق الباب كعادتك؟

— لا شيء.

— ما بِك رامي؟ تبدو مهمومًا للغاية.

نظر إليها في ارتباك، كان مترددًا.. أيصارحها بما حدث الآن؟ أم يكتمه عنها ليمنح نفسه الفرصة للتفكير في الأمر؟

أقلقتها رؤية وجهه مضطربًا هكذا، اقتربت منه وجلست بجانبه على السرير وأمسكت يديه بكلتا يديها قائلة: ما بِك حبيبي؟ أراك متكدرًا غائم الوجه.. لقد أقلقتني.

— هل نامت الفتاتان؟

— ليس بعد.. كنت أجهزهما للنوم عندما أحسستُ بقدومك.

— حسنًا.. لنتحدث عقب نومهما إذًا.

— كما تحب حبيبي.. هل أحضرهما لك لتُسلما عليك قبل أن تخلدا إلى النوم.

— بل سـأذهب أنا إليهـا إيمان.. فقد اشـتقت إليها كثـيرًا، أمهليني عشر دقائق لاستبدال ملابسي ثم سآتي إليها بنفسي.

— خذ وقتك كاملًا حبيبي.

قبلته في جبهته وانصرفت قلقة عليه.

* * * * *

انتهى آسر من تناول طعام العشاء أو هو طعام الغداء على وجه الدقة.. تأخر كثيرًا اليوم عن موعد عودته المعتاد، كانت سارة قد اعتادت على تذبذب مواعيده، لـم تتناول هي إلا القدر اليسير من الطعام، لم يسألها عن ذلك فهو بطبيعـة الحال يتوقع أنها تتنـاول غداءها بمفردها قبل أن يحضر، ولكنها هذه المرة كانت تنتظره حقًا، لا ليتناولا طعامها سـويًا، ولكن لتحدثه فيما عزمت عليـه.. فهي قـد اتخذت قرارها وقضي الأمـر، لن تنتظر قدوم شـقيقها معاذ لتفاتحه في قرار انفصالها عن آسر، إنها امرأة ناضجة، راشدة.. ومن المفترض أن قرارهـا بيدهـا وحدهـا، لقد فـاض بها الكيـل حقًا.. وكل هـؤلاء الذين ينصحونها بأن تنحني تجاه العاصفة كي تمر لن يعيشـوا حياتها بدلًا منها، هي لا تستطيع الاستمرار هكذا، إن استمرار حياتها مع آسر بهذا الشكل يقودها إلى الجنـون.. من حقها أن تحيا حياة هادئـة بدلًا من هذه التي فُرضت عليها، لقد كفل الله لها ذلك عندما شرع الطلاق إذا ما استحالت العشرة، وهي تجد

حياتها معه مستحيلة لأقصى مدى، فلِـمَ إذًا لا تستخدم هذا الحق؟ أمِن أجل كلام الناس؟ ما لها والناس؟ كل منهم يحيا حياته وفق ما يريد وكيفما يشاء، فلتفعل مثلهم إذًا.

إن آسر الآن في حجرة مكتبه، لابد أنه منشـغل بمطالعة أوراق عمله أو أنـه يُجري محادثة هاتفية كـما تعود أن يفعل، فهل تفاتحه فيما أرادت وعزمت؟ أم تنتظر؟ ولكن إن لـم تفاتحه الآن فمتى تفعل ذلك؟ إنه لا يكون متفرغًا لها إلا في أوقات محددة يختارها هو فقط ـ عندما يجمعهما الفراش ـ حتى في ذلك الأمر ينتهي منها سريعًا، وكأنها مجرد أداة يفرغ خلالها شهواته ليتفرغ لشيء آخـر أكثر أهمية منها.. فـماذا تفعل إذًا؟ لا تدري حقًا، تنتابها الحيرة، يجتاحها التردد من جديد، تغمض عينيها للحظات؛ فتتراءى لها ذكرى خانقة وسـط موجـات ترددهـا، يـا الله! لكم تمقـت تلك الذكـرى.. تحـاول إبعادها دون جـدوى، ولكـن يبدو أنهـا تصر على الحضور، فهـا هي تنقـض عليها الآن.. صور انهيارها عقب رحيل عمر بشـهر، أضواء المستشفى، أنابيب المحاليل، نـوم متقطع تسـترقه ببعض العقاقير، العودة إلى البيـت، إيمان بجانبها تربت عـلى وجههـا، تتعجـب مـن لفتاتها الوجلـة جهة حجرة النـوم، تندهش من انتفاضاتها ومن نظراتها الزائغة.. «لِـم أنت خائفة هكذا سارة؟ من أي شيءٍ ترتجفين حبيبتي؟».. تنتفض هي أكثر، تُكثر من اختلاس نظرات الرهبة جهة تلـك الحجرة، إيـمان تحتضها.. تطمئنها.. «كل شيءٍ سـيكون بخيرٍ سـارة..

لا تخشي شيئًا حبيبتي»، ثم في النهاية.. ترتحل إيمان، صوت خطوات تقترب في تؤدة.. في ثقة، تتضخم الرهبة داخلها.. تحتلها، أنفاسها تتخبط بالداخل، تجاهد للخروج، إن آسر أمامها الآن، يمد يديه ويمسكها، تطالعه من أسفل بخوفٍ يرتجف، يجذبها برفق.. «لا تخافي.. تعالي معي»، تلتصق بالأريكة أكثر؛ فيزيد من حدة رِفقه الخاص.. «لن أفعل شيئًا.. صدقيني، فقط تعالي معي»، تستسلم له في النهاية، يجذبها معه حيث الحجرة في نهاية الرواق، انعكاس أضوائها الصادر من فرجة الباب يبعث فيها موجات من القشعريرة تتتابع في جنون، قدماها تتسمران حيث الباب، تأبيان الولوج، يدفعها بثبات جهة الفراش، تزداد ارتجافاتها، يُجلسها.. يقترب منها، يقبلها برفق، «ها أنا معكِ.. لا تخافي»، ينزع عنها ملابسها قطعة فقطعة، يحتويها بذراعيه؛ فتنتفض بينهما كيمامةٍ أطبق عليها قط بري عابث يلوكها بين مخالبه بنزق، قط ليس من ديدينه الرفق بضحيته، ما زال ذهنها حاضرًا رغم كم المهدئات، سيلهو بها قليلًا، يذبحها.. ثم ينتهي الألم، فلتستسلم له إذًا، ما هي إلا دقائق معدودة، لتتحملها كيفما شاء، تنظر بعينيه فترى ذروة الطوفان القادمة، تغمض له عينيها باستسلامٍ منكسر، بخضوعٍ واجف، دقائق من نزف الوجع.. ثم تم له الأمر، تنتزع نفسها من بين براثن تلك الذكرى بآهةٍ ملتاعةٍ تحاول كتمها بيديها، تنظر جهة المطبخ بقلق لتطمئن أن صوتها لم يبلغ الخادمة هناك، ما زال أمامها نصف ساعة تنتهي خلالها من بقية أعمالها

ثـم ترحل لتأتي غدًا قبيل الظهيرة، لتنتظر رحيلها إذًا، تعاودها تلك الذكرى من جديد؛ فتطفىء نيران ترددها وتشعل لهيب إصرارها على حسم الأمر.

* * * * *

— هـا قـد نامـت الفتاتان رامـي.. فلتخـبرني حبيبي ما الـذي حدث وجعلك مهمومًا هكذا؟

— أغلقي الباب جيدًا إيمان وتعالي هنا.

أشـعرها كلامه بقلق أكثر، فعلت كما طلب منها ثم جلسـت إلى جواره، فقال دون أن ينظر في عينيها: يبدو أن الشركة التي أعمل بها تواجه مشـكلات ماليـة عديـدة؛ لذا قـرر أعضاء مجلـس إدارتهـا تصفية الشركـة وتسريح جميع العاملين بها في غضون الشهرين التاليين.

أحسـت بغصـة خانقة داخل حلقها ولكنها تمالكت نفسـها، لمسـت يـده في حنـان وصوتها يجيبه بنبرات حاولت تغليفهـا بالهدوء: أهذا هو ما يقلقك حبيبي؟

— نعم إيمان.. هذا هو ما يقلقني، تنهد بعمق وأردف.. ماذا سـنفعل إذا ما أغلقت الشركة أبوابها؟ وكيف سنحيا أنا وأنتِ والفتاتين؟

احتوت وجهه بين راحتيها وقربته إليها وهمسـت: رامي.. إن الله لن يضيعنا حبيبي، سيدبر الأمر، فقط ثق بذلك.

— ونعـم بـالله حبيبتي، أنـا ما فقدت ثقتـي بالله أبـدًا، ولكن عقلي لا يسـتطيع التوقف عن التفكير منذ علمت بالأمر هذا الصباح، ولا أدري ماذا سنفعل؟

لفّهـا الصمـت لبعـض الوقت، لا يدريـان ما الحـل؟ حتى قطعت هي حبائل الصمت هذه قائلة: فلتجرب حظك مع نبيل إذًا، لتشـاركه في مشروعـه الخاص، إنه طالما أراد ذلك منك وتمناه عليك، ولقد حدثك فيه كثيرًا على مدار العامين الماضيين.

— ولكني أحب عملي الذي أقوم به كثيرًا وأنتِ تعلمين ذلك.

— أعلـم ذلـك حبيبي.. ولكنه أمر الله ولا سـبيل لنـا إلا الانصياع له والرضا به، إن نبيل كان يريدك شريكًا له منذ البداية، ولكن وقتك كان لا يسـمح لك بمتابعة المشروع معه، وعندما عرض عليك أن يتحمل هو المسـئولية كاملة.. اسـتثقلت أنت أن تشاركه ثم تلقي عـلى عاتقـه بكافـة الأعبـاء.. وها هـي الفرصة أصبحت سـانحة أمامك الآن، فماذا قلت؟

نظـر إليهـا وتنهد طويلًا، هو مقتنـع تمامًا بما قالتـه، رأيها صائب من وجهـة نظـره، صحيـح أنه كان لا يحبـذ أن يكون له عمل خـاص به وأن يكـون مسـئولًا عنه تمامًـا، يتحمـل كل كبـيرة وصغيرة فيه، كان يخشـى السـوق وتقلباتـه وتبعاتـه، وكان يميل أكثـر لأن يعمل بوظيفـة مرموقة

بإحـدى شركات القطـاع الخـاص، يُخلص في عمله ويتـدرج في المناصب فقـط دون أن يتحمل أي أعباء أخرى، هكذا كان يرجو، ولكن كما قالت إيمان، ليس هناك من حلٍ آخرٍ الآن ولابد له من خوض التجربة.

جذبهـا إليه وقَبّل جبينهـا ثم نظر في عينيها قائلًا بحب: سـأحدثه في ذلك غدًا بإذن الرحمن، ثم احتضنها مكملًا كلامه.. أتعلمين إيمان؟ كنتُ أوقـن أنني سـأجد حلًا لديكِ دون شـك، دائـمًا ما آتيـكِ مهمومًا حزينًا، فتنفضـين عني الحزن وتحتوينني برقتك الآسرة.. كثيرًا ما أشـعر أني ابنك الصغير ولست زوجك فقط.

احتضنتـه في جذل كطفلة صغيرة تختفي بأحضان والدها قائلة: ومن قال لك إنك لست ابنًا لي؟ أنت ابني وحبيبي وزوجي وأبي الذي لا ملجأ لي سواه، وصديقي قبل كل ذلك.

احتضنها بشـوق وهو يشعر أن الغد يحمل له الأمل.. كل الأمل، فما دامت هي معه، وإلى جواره فلا شيء يهم.

* * * * *

اتجهت سارة ناحية الحجرة وطرقت باب المكتب، سمعت صوته يدعوها إلى الدخول؛ فدلفت إلى الحجرة، كان آسر جالسًا خلف مكتبه يطالع ملفًا بين يديه، لـم يرفع نظره نحوها ولـم يسألها عما تريد، فبادرته هي متسائلة: آسر.. كنت أريد محادثتك في أمر مهم، فهل أنت متفرغ الآن؟

رد عليها بينما عيناه ما زالتا تطالعان الأوراق: أنا منشغل للغاية كما ترين.

— ولكني أريد محادثتك في موضوع مصيري.

رفع عينيه نحوها في دهشة وكأنه يتعجب من هذا الرد ثم قال لها: فلتؤجلي الحديث حتى يحين الوقت المناسب لذلك.

— وما العمل إن كان ذلك الوقت المناسب لا يأتي أبدًا؟ أنت منشغل دائمًا.. فماذا عليَ أن أفعل الآن؟

— الزمي الصمت إذًا.

تنهدت بضيق وتحركت من مكانها وأخذت تقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا عدة مرات، فما كان منه إلا أن نهرها قائلًا: هلا توقفتِ عن فعل ذلك؟ طريقتكِ هذه تشتت تفكيري تمامًا، إنني أتابع سير العمل الآن إن كنتِ قد لاحظتِ ذلك، وعملي يتطلب تركيزًا وهدوءًا شديدين، فهلا خرجتِ الآن لأستطيع التفرغ لما أقوم به؟

استفزها كلامه إلى درجة كبيرة، فلم تشعر إلا وصوتها يجيبه بنبرة حادة تخالف طبيعتها: لن أخرج حتى نتحدث فيما أريده منك.. إن كان عملك مهمًا فحياتنا معًا أكثر أهمية من عملك وأرقامك وحساباتك.

نظر لها متعجبًا فخفضت رأسها لهنيهة لتلتقط أنفاسها الهاربة، ثم رفعتها من جديد وتابعت بصوت خفيض: آسر.. أرجوك، لتفسح لي القليل من الوقت وأعدك أني لن أطيل عليك.

تنهد في ضيق وأشار لها بيده متبرمًا أنْ تكلمي.

استجمعت أنفاسها في وجل وقالت سريعًا وكأنها تخشى أن تفارقها الكلمات إلى غير رجعة: أنا أريد الانفصال عنك آسر.

باستغراب شديد استوضحها الأمر متسائلًا: عفوًا.. ماذا تقولين؟

— أقول إني أريد الانفصال، بمعنى أنني أطلب منك الطلاق على وجه الدقة.

ابتسامة ساخرة لاحت على وجهه ثم استحالت إلى ضحكة مدوية، ضرب كفيه ببعضيهما وكأنه يهزأ مما تقول، فقاطعته قائلة في حنق: أنت تعلم مثلما أعلم أن حياتنا معًا محكوم عليها بالفشل، نحن نعيش معًا كسجينين ينتظران قرار العفو برحيل أحدهما إلى العالم الآخر.. حياتنا معًا تخلو من الحياة، فلِمَ الاستمرار بها إذًا؟ لِمَ نسمح بتكرار تلك التمثيلية الهزلية كل يوم؟ نحن مختلفان تمام الاختلاف، لا يجمعنا ولو نذر يسير من التوافق.. فلِمَ لا نستمع إلى كلام العقل الذي يصرخ فينا ألا سبيل لكما سويًّا...

استجمعت أنفاسها قليلًا ثم أكملت.. لننفصل وليجرب كل منا حظه في هذه الحياة بعيدًا عن الآخر، قد تكون الجنة تنتظرك هناك مع امرأة أخرى غيري، فلِمَ تُضيع فرصة امتلاكك لجنتك الخاصة؟

كان هـو صامـت يـدور بكـرسي مكتبـة المتحـرك حول نفسـه مرات ومرات بينما هي تتحدث، وعندما أنهت كلامها اسـتمر في دائرة الصمت.. انتظرته ليتكلم، فلم يحر جوابًا، فسألته في خفوت: ما رأيك فيما قلته الآن؟

— رأيـي أنـكِ تهزين.. وأني قـد أضعـت الكثير من وقتـي الثمين في الاستماع لحديث لا طائل من ورائه.

باستنكار شديد أجابته: أهذا كل ما وصلك من كلامي؟ أنني أهزي.

قـام مـن مكانه واقـترب منها قائلًا في نـبرة حادة: فلتسـمعيني جيدًا سـارة.. أعلـم تمـام العلم أن عقلك مـليء بكل تلك الترهـات عن زهور السعادة التي يجب أن تزين بساتين حياتنا، وعن جنة المشاعر والأحاسيس المزعومـة التـي تنتظرنا هناك خلـف المجهول، ولكن يؤسـفني أن أخبرك أنك واهمة فيما تظنين.. فالسـعادة لا توجـد حيثما يأخذك عقلك المضلِل، السعادة تجدينها هنا في هذا المنزل.. منزلنا أنا وأنتِ.

— عن أي سـعادة تتحـدث آسر؟ وأين أجد سـعادتك المزعومة هذه يا تُرى؟

— فلتنظـري حولك جيدًا لتدركي عن أي سـعادة أتحدث، فهذا البيت الفاخر الذي تعيشين فيه هو السعادة.. مدبرة المنزل التي تأتيكِ يوميًا لتقوم بأعباء الدار بدلًا منك، الحي الراقي الذي تقطنين به، سيارتك

الفارهـة، النـادي المتميـز الـذي ترتادينـه، ملابسـكِ باهظـة الثمن، مصفف الشـعر الذي تقصدينه أسـبوعيًا، نمط حياتنا الذي يحسـدنا عليه الجميع، الوسط الاجتماعي الذي تتنفسين هواءه، كل هذه الدنيا التـي تحيط بكِ هي السـعادة.. تلك هي السـعادة التي أعرفها، والتي يكلفني تحقيقها لكِ أرقامًا فلكية تُسحب من حساباتي في البنوك.

انفجرت في ضيق قائلة: أرأيت؟ نحن مختلفان حتى في أبسط مفاهيمنا عـن طبائع الأشـياء، ولا أمـل من اتفاقنـا.. ليس هناك من طريق مشـترك نسلكه سويًا لنلتقي في نهايته، نحن كقضيبي قطار متوازيين لا يلتقيان أبدًا، وإن قُدر لهما الالتقاء؛ فحتمًا سيسفر التقاؤهما عن كوارث عديدة.

ربـت على كتفهـا وكأنه يهدهد طفـلًا صغيرًا وقال لها: مـا أراه هو أن تذهبـي إلى حجرتـك الآن، وتتركينـي أتابـع أعمالي لأسـتطيع توفير سـبل السعادة كما أراها أنا.

كادت أن تـرد عليه لكن هاتفها أخذ يصدر رنات متتالية، فما كان منه إلا أن قال لها في حنق: فلتجيبي على هاتفك الآن سارة ولتذهبي من أمامي.

ظلـت صامتة في مكانهـا لا تتحرك، بينما كلماته التـي ألقاها عليها منذ قليـل ترتـع في عقلها، وتتتابع مع صوت الهاتف في سـباق محموم.. صمت الهاتف لثانيتين ثم عاود الرنين مرة أخرى، يا الله! رنين الهاتف ووقع كلماته

يتصارعان بأودية روحها، يتقاتلان هناك على حدود بوابات الشغاف، وقع جريانهما وكأنه قرع طبول ضارية فصلتها عن أرض الواقع لعدة دقائق، حتى أعادها صراخ آسر بها: سااارة.. فلتجيبي على هذا الهاتف اللعين.

انتفضت من أثر صراخه وأجفلت ثم أسرعت وتناولت الهاتف بيد ترتجف قهرًا.. إنها نور ابنة خالتها إحسان، بنبرات مرتعشة أجابتها: كيف حالكِ نور؟

قاطعها صوت نور باكيًا: سارة.. لقد توفيت أمي؟

هنا كان عقل سارة قد وصل إلى طريق بلا عودة، وكأن وعيها قد اصطدم بحاجز فولاذي صلب، غامت الدنيا أمام عينيها، ثم سقطت مغشيًا عليها.

الفصل السادس

انتهت مراسم العزاء، فُضَ السرادق المقام أمام المنزل، وذهب كل المواسين رجالًا ونساءً إلى بيوتهم بعد أن قامت بعض الجارات الشمطاوات بما يتوجب عليهن القيام به من طقوس المواساة، بدءًا من التباكي وذِكر محاسن الفقيدة ومدى التصاقها الروحي بكل منهن، إلى استراق النظرات إلى ابنتها نور والحديث عن ماذا ستفعل هذه المسكينة بعد رحيل أمها؟ وما الذي سيؤول إليه حالها بعد تلك الفجيعة؟ واجترار الأمثال التي لابد أن تقال في مثل هذه المواقف على غرار «أنه من عاش بلا أم فحاله يؤول إلى الهم»، مرورًا بذِكر وائل ابنها البكر وشقيق نور الوحيد والثناء عليه لفترة لا بأس بها من الوقت، ثم التحسر على حاله وكيف أنه حَرم على نفسه الزواج للعناية بأمه وشقيقته الوحيدة بعد وفاة والده، وصولًا إلى الحديث عن بعض الجارات وأكل لحمهن قليلًا، وكيف هي

أحوال الحي رجالًا ونساءً، وماذا فعل جارهم الأستاذ حسن مع زوجته سناء؟ وكيف أنها تحملته كثيرًا وساندته في بداية زواجهما، فما كان منه إلا أن كافأها في نهاية الأمر بأن ألقاها على قارعة الطريق وتزوج من فتاة صغيرة في عمر ابنته؛ لتعيد إليه شبابه المفقود.. لتُظهر إحداهن امتعاضها في ذلك الوقت قائلة «هكذا هم كل الرجال.. صنف خائن لا يؤتمن».. وانتهاءً بسؤال كل منهن للأخرى عما سيطهونه غدًا على مائدة الطعام، طقوس لابد لها من الحدوث في كل سرادقات العزاء.

مشاعر عدة متضاربة تظهر في الأفق، شعور بالاختناق يغتال سماء نور ويئد نبضاتها بقبضته السحيقة، إحساس بعمق الفقد وبمدى المسئولية الملقاة يحيط بوائل ويكبل عالمه بسلاسله الحديدية، فكرة اللا جدوى والفناء تسيطر على خلجات سارة؛ فتمطر سحبها قنوطًا خالصًا.

يتتابع جريان نهر اللحظات.. ساعات عدة سقطت من حسابات الزمن، أيام ولت ومضت بلا عودة، أسابيع جذبت بعضها بعضًا في اشتياقٍ ملتاع، صفحات من كتاب الوقت تُطوى في جنون، سباق اللحظات يتوالى جريانه تباعًا تباعًا.. حتى أتم دفتر الرحيل شهرين كاملين من عمر الوجع.

وائل ونور وسارة يتشاطرون نزف الأنين.. يجلس ثلاثتهم بالردهة، يبحرون معًا بنهر الذكريات، يشق كل منهم صفحة الموج بمجداف

الحديث عن نبض الليالي المحتضرة، يصيبهم رذاذ الفرح باستخلاص موقف ضاحك من بين فكي الذكرى؛ فتشرق شمس أعينهم تبسمًا، ثم تعبر سفينة الوجع بصخبها المكلوم أمام قاربهم، فيطفىء كيرها وهج ابتساماتهم.. يتحدثون عن أمور عبَرتهم ومرت بهم وانقضت لحظاتها، ثم يصل قاربهم إلى مرفأ الحاضر بآلامه وخيباته.

دار الحديث عن آسر الذي اختفى من المشهد بطبيعة الحال، جاء لتقديم واجب العزاء في أول يوم على استعجال، لم يمكث إلا عشر دقائق لا غير، تعلل بمشاغله ثم انصرف، أحرج سارة بتصرفه هذا غير أنها لم تُلق بالًا كبيرًا إلى ذلك، فقد تركها تأتي إلى دار خالتها كيفما تريد طالما هو خارج المنزل ولا يحتاجها، وكان ذلك هو كل ما ترجوه منه.. سألتها نور على استحياء: كيف تتحملين الحياة مع من كان مثله سارة؟ أنت نسج مختلف عنه تمامًا، كان من المفترض أن تتزوجي من قلبه مثل قلبكِ حبيبتي.

قالتها ورمت شقيقها وائل بنظرة ذات مغزًى مفهوم لكل منهما.. كانت تعرف أن وائل يحب سارة كثيرًا منذ سنوات، ولكنه لم يجرؤ على التصريح لها بذلك نظرًا للفارق المادي والاجتماعي بينهما، كانت تعلم أنه اضطر إلى كتم مشاعره بداخله، ورجحت أن عدوله عن الزواج ليس وراؤه تحمله لكامل المسئولية تجاهها هي ووالدتها فقط، بل إنها كانت

تدرك أن حبه لسارة كان له الدور الأكبر في عزوفه عن الارتباط بغيرها، حقًا إن وائل لم يحدثها عن ذلك قط، ولكنها استشعرت بغريزة الأنثى داخلها؛ أن شقيقها متيم بسارة ابنة خالتهما.. خفض وائل عينيه حينما التقيتا بعيني شقيقته، وكأنه أحس بما يعتمل بنفسها.

لحظة خاطفة مرت قبل أن تجيب سارة: ليس كل مفترض يتأتى لنا تحقيقه نور.. أعلم تمامًا أننا مختلفان، ويشهد الله أنني حاولت التقرب إليه بشتى الطرق حتى أعيتني الحيل، نصحتني خالتي ـ رحمها الله ـ كثيرًا بطلب الطلاق، غير أني كنت أهاب تلك الخطوة، لن أخفيكما سرًّا أني بت أمقت هذه الحياة، أصبحت أختنق حرفيًا من مجرد وجودي معه بالمكان نفسه، وغدت فكرة الموت تراودني خيالاتها كلما خلوتُ إلى نفسي وكأنها ملجأ أخير لا سبيل لي إلاها.

كان وائل حتى هذه اللحظة صامتًا تمامًا لا يريد لقلبه أن يدلي بدلو نياطه في مجرى الحديث، حتى انهار سد تحمل سارة وانسال فيضان نهر دموعها غزيرًا؛ فجرف صرح الصمت بداخله، ولم يقو على التحمل لأكثر من ذلك، لو كان باستطاعته لاحتواها بين ذراعيه الآن، ولكن عينيه قامتا بذلك الأمر؛ فاحتضنتها نظراته وقال لها في حنو: بالله لا تبكين سارة.. لا تُحملين نفسكِ أكثر من طاقتها، ألا تعلمين مكانتكِ لدينا؟ حياتي كلها فداء لدمعة واحدة من عينيكِ.

رفعت عينيها وانتبهت لكلماته، وكذلك فعلت نور، فأدرك أن قلبه قد خانه وأفصح عما بداخله، فصمت للحظة ثم استدرك: أقصد حياتي أنا ونور فداء لكِ سارة.

كفكفت دموعها ونظرت إليهما قائلة: أعلم ذلك جيدًا.. ولكن لا تقلقا عليَ، لقد اتخذت قراري بالانفصال عنه.

قاطعها في لهفة: ولكن هل تحدثتِ معه في ذلك الأمر بالفعل؟

— نعم.. كنت قد فاتحته في هذا الأمر قبيل أن تبلغني نور بوفاة خالتي، وكعادته اعتبرني أهزي وأنهى الحوار، ولكنني لن أستسلم لرغبته.. سأفاتحه في الأمر من جديد، إن معاذ قادم بعد يومين، سأستعين به عليه، لابد لي من الفرار من ذلك السجن.. لابد لي من ذلك.

احتضنتها نور وقبلتها قائلة: ستخرجين من جدران سجنه سارة، أنا واثقة من ذلك، فمثلك لن يتركها الله تحيا هذا الأسر.

— أرجو ذلك كثيرًا نور.

نظرت إلى ساعتها وأردفت: لقد سرقنا الوقت كعادتنا، إن الساعة تقترب من الخامسة، لابد لي من الانصراف الآن لأتمكن من العودة قبل أوبته من العمل، فأنا لا أريد إثارة غضبه هذه الأيام، ولا أريده أن يتحجج أمام معاذ بأنني كنت أقضي وقتي كله ها هنا وأهمله.

— كما تريدين سارة، ولا تقلقي حبيبتي فنحن بجانبك دائمًا، إن احتجتِ أيًّا منا... فما عليكِ إلا أن تبلغينا فقط.

— لا حرمني الله منكما نور.. أستودعكما الله.

ودعتها نور بينما أصر وائل على النزول معها إلى أسفل، أوصلها حتى السيارة ونظر إليها طويلًا قبل أن ترحل، نظرة أودعها كل ما أراد قوله لها ولم يجسر على التصريح به.

احتفظت هي بنظرته لبعض الوقت بينما تقطع معالم الطريق بالسيارة، تعجبت من تصاريف القدر، فهي تمتلك قلب وائل منذ زمن بعيد، تعلم أنها طالما امتلكته منذ أيام المراهقة الأولى حتى الآن، بينما يمتلك نبيل قلبها معه هناك في عالمه القصي، ويمتلك آسر كل موضع من جسدها ليرتع فيه كيفما شاء، آهة خرجت من داخلها قطعت ضجيج الصمت وملأت ضواحيه، وغلفت أمتار الطريق المتبقية لها بوقع نزف الصدى، آهة اصطحبتها معها حتى وصلت إلى وجهتها بالمنزل.

* * * * *

وعاد معاذ.. عاد ليجدها حطامًا بشريًا، ليجد أميرته المدللة الأثيرة إلى نفسه في حالة يرثى لها، عزى الأمر في بدايته إلى رحيل خالتهما، فقد كان يعلم مقدار ارتباط سارة بها خاصة بعد رحيل والدتهما عن الحياة، حتى تكلمت معه سارة وأفهمته حقيقة الأمر، استحلفته بكل غالٍ

عـلى قلبه وبمنزلتهـا لديه بألا يضغـط عليها أكثر من ذلك للاسـتمرار في زواجها من آسر، لـم يكن بحاجة لأن تسـتحلفه ولا لأن ترجوه، فها هي أمامـه الآن يراهـا مـرأى العين، يلمس بنفسـه كيف آل إليـه حالها، كانت قد تبدلت تمامًا، وكأنها ليسـت سـارة شـقيقته، حقًا كان يـدرك أنها تعاني ويـلات صراعها بين ما تريده وما يمليه عليها واقع الأمر، وكان يعلم أنها ليست سعيدة وترغب في الانفصال، ولكنه اعتقد أن استمرار العشرة بينها وبين زوجها قد تذيب صقيع الجليد الذي فرض سطوته على بقاع روحها واسـتحكم بها حتـى تبدلت، كان يرجو أن يرزقهـا الله بطفل آخر عوضًا عـن عمـر، ويرى أن ذلـك قد يعيد إشـعال جـذوة مـودة كان يعتقد أنها موجودة بينهما، ولكنه لن يجازف بنفسـية شـقيقته بعد الآن، لقد حسـمت أمرهـا ولـن يسـتطيع أي فرد أيًـا كان أن يثنيها عن قرارها، سيسـاندها في ذلـك، فهـو لن ينسـى لحظـة أن رفعـت عينيها إليـه فلم يسـتطع تميز لون العسـل بهما من خلف سـحابات الدمـوع، وعندما جاءه صوتهـا مذبوحًا يسـأله: فلتمنحني سببًا واحدًا لأكمل من أجله؟ فأنا ليس لدي أطفال منه لأتحمل من أجل إسـعادهم كي ينشـأوا في بيت مستقر بين والديهم، لست فقيرة أعاني الفاقة لأضطر لاحتمال حياة تسـلبني روحي كل يوم من أجل أن أجـد من يعولوني، عـلى العكس تمامًا.. فنحن ميسـوري الحال والحمد لله، نمتلك منزل والدينا الذي يمكنني أن أحيا به حياة كريمة، لدي رصيد

كبـير في المصرف ورثته عن والدي رحمه الله.. أسـتطيع أن أعول نفسي من أرباحـه، كل مـا أرجوه أن أحيا بعيدة عنه حتـى لا أصاب بالجنون بعد أن أفقدني رغبتي في الحياة، فإن كنت ترى أني أبالغ فيما أطلبه فلتخبرني الآن.

رغمًا عنه سـقطت دموع عينيه تأثرًا لحالها، احتضن رأسها بين ذراعيه وطمأنها بأنه سينفذ لها ما ترجوه، وأنه ما دام حيًا فلن يجرؤ أي شخص أن يفرض عليها حياة لا تريدها.

وقـد كان.. فقـد أتـم لهـا مـا أرادت، حقًـا إن آسر لـم يُذعـن للأمر بسـهولةٍ ويسر، لـم يقبـل أن يفرض أحدهم أمرًا مـا عليه، حتى ولو كان يرغـب هو أيضًا بهـذا الأمر.. فلابـد أن يقرر ذلك بنفسـه أولًا؛ فأدخلهما في دوامـاتٍ كلامية لا ينتهـي دورانها، وأمطرتهما سـحب غضبه حوارات ومناقشـاتٍ عديدة، أرعد وأزبد خلالها طويلًا، ثم بعد أن تيقن من إنهاكه لقواهمـا.. وافق أخيرًا على طلبهما، ولكنه اشـترط لإتمام الطلاق أن تتنازل سـارة عـن حقوقها الشرعيـة كافة، لـم يهتـم معاذ لذلك الأمـر، فقد كان كل ما يشـغله أن يحقق لسـارة ما أرادته، وأن ينتشـلها من بئر الآلام الذي تصـارع كـي تنجو منه، ويوم أن وقَعت على قسـيمة الطـلاق.. ورأى لمعة الخـلاص تـبرق بين نظراتها، وكأن شموسًـا عدة قد أشرقـت هناك خلف أنهار العسـل بعينيها، أمسـك يدها فتبسـمت له في امتنان رائق حنون، ثم أغمضت عينيها وتنفسـت بعمق قائلة: أشـكرك كثـيرًا معاذ.. وقتها فقط أحس بنسـائم الراحـة تغمره أصداؤها، وأيقن أنهـا تولد من جديد، وأنها بدأت تستشعر أنداء الحياة.

الفصل السابع

شـهر مضى على إتمـام الطلاق، ثلاثـون يومًا كاملة اسـتردت خلالها سارة أنفاسها من خلف غمامات الحزن، اجتذبت روحها الأسيرة من بين فكي الفناء الذي هامت به لسـنين عدة، بدأت عيناها تسـتعيدان رونقهما شيئًا فشيئًا، استردت ضحكاتها، لفتاتها، حتى أنها استعادت نبرات صوتها القديمة المرحة، كانت وكأنها تسرع بعجلة الزمن في الاتجاه المعاكس تبغي إيصالهـا إلى نقطة المبتـدأ، إلى ذلك اليوم الذي زُفت فيه إلى آسر، من هنا.. كانت تريد البدء من جديد.

اضطر معاذ إلى الرحيل بعد إتمام الطلاق مباشرة ليلحق بعمله هناك في البحريـن، مصطحبًـا معه زوجته وابنه، رجاها كثـيرًا أن ترحل معهم،

وألحت عليها منى زوجته في ذلك، ولكنها أبت، أصرت على المكوث بمصر حيث تقيم الآن بمنزل والديها لترتيب أفكارها من جديد، لترى ماذا ستفعل في حياتها بعد ذلك، وعدته بأنها ستذهب إليه إذا ما أحست بحاجتها إلى ذلك، سافر وهو مطمئن عليها، فهو يتركها في رعاية الله أولًا ثم في عناية نور ووائل ومن قبلهما إيمان صديقتها المقربة.

كل من حولها لاحظ التغير الذي طرأ عليها وحدثها عنه، هي نفسها أحست بذلك، إنها تستيقظ كل يوم بأمل جديد، تعيش يومها بفرحة طفلة ضلت طريقها طويلًا ثم عادت أخيرًا إلى أحضان أمها، ولكنها اليوم تشعر أنها على غير عاداتها طوال الشهر المنصرم، يتملكها التوتر والارتباك، هي تدرك جيدًا السبب وراء ما تشعر به، إنها ستلتقي بنبيل اليوم، بعد كل سنوات الفراق الماضية ستلتقيه هناك في ذلك الحفل الذي أعدته إيمان احتفالًا بشراكته مع رامي، لم يكن هناك داعٍ الآن مِن عدم ذهابها، لم تُشعرها إيمان بذلك الارتباك كالماضي عندما كانت تضطر لإبلاغها بأن نبيل قادم إلى الحفل بطريقة غير مباشرة، حتى تمتنع هي عن الذهاب، سارة أيضًا أحست بأنه لا ضير من ذهابها إلى هناك الآن، غير أن صراعًا كان يدور بداخلها بطلاه هما قلبها وعقلها، فعندما كانت تُحدث نفسها قائلة:

— وما المانع من ذهابي إلى هناك؟ إنه زميل قديم ويمكنني أن ألتقيه كباقي الزملاء.

كان عقلها يقحم نفسه معترضًا..

— ولكنكِ ما زلتِ تعشقينه، وأنتِ تدركين ذلك جيدًا.

فيندفع قلبها مبررًا..

— حتى وإن كنتِ تحملين له بعض المشاعر فأنتِ حرة الآن، لا تحملين اسم رجل آخر غيره، فلا ضرر من ذهابكِ عزيزتي، لا ضرر على الإطلاق..

تحسم هي الأمر وتسكتهما عازمة على الذهاب، غير أنها وإن كانت تميل إلى قرار قلبها لكنها ما زالت على ارتباكها، هي تحبه وتشتاقه كثيرًا وترغب في رؤيته بشدة، ولكنها تتساءل ماذا ستفعل حينما تراه؟ وهو.. أتُراه سيذكرها؟ وكيف سيكون حاله عند رؤيتها؟ أسيبتسم لها ابتسامته الصافية التي كانت تخلب لبها قديمًا؟ أم أن وجهه سيتجهم وقتها؟ تساؤلات كثيرة تحيط بها.. لابد لها من أن تهدأ قليلًا حتى تستعيد رباطة جأشها.

أخرجت الفستان الجديد الذي اشترته خصيصًا من أجل الحفل، كانت ترغب في أن يراها أجمل مما سبق، لم تعترف لنفسها بهذا ولكنها كانت تدرك ذلك من وجيب قلبها الذي تعلو دقاته كلما اقترب ميعاد الحفل، ارتدت ملابسها وبدأت في وضع المساحيق بيد ترتعش شوقًا إلى مصافحته، تشعر بأنها لم تضبط رسم عينيها جيدًا، فتزيل ما فعلته ثم تعيده

مـن جديد، كـررت ذلك ثلاث مرات، حتى أحسـت بالرضـا عما وصلت إليه في هذا الشـأن، ألقت نظرة أخيرة على صورتها بالمرآة، تنفسـت بعمق ثم اتجهت إلى باب الشقة لتلحق بالحفل.

* * * * *

وصـل نبيـل إلى منـزل صديقه رامـي، حيـث الحفل المُعـد على شرفه احتفـاءً ببـدء الشراكـة بينهـما، جـاء وحـده دون اصطحاب زوجتـه ليلى، دائـمًا مـا كان يحضر ها هنـا دون أن يصطحبهـا معه، اللهـم إلا مرة واحدة في بدايـة زواجهـما، حيث أصرت ليلى على الحضور ردًا عـلى زيارة إيمان لها التـي قامت بها لتهنئتها على زواجها من نبيل، بعد ذلك كان يلتقي بصديقه عـلى المقهـى أو في النادي، وأحيانًا كان رامي يمـر عليه بمكتب التوريدات الخاص به والذي يتشاركان الآن في إدارته، إنه يذكر جيدًا عدد المرات التي جـاء خلالهـا إلى هنا.. خمس مرات هي، تنوعت أسـبابها ما بين أعياد ميلاد ابنتـي رامـي وعيد زواجه هو وإيـمان، دائمًا ما كان يأمل في لقاء سـارة هنا، ولكـن آماله هذه كانت تغدو كـسراب بقيعة.. في يوم قائظ تلتهب أجواؤه من لفح حرارة الشـوق، لا يكاد يبلغه حتى يكتشـف أنـه كان يطارد خيط دخـان، وهل اسـتطاع أحدنـا يومًا أن يمسـك بخيط دخـان؟ ولكنه اليوم يشعر بحضور أنفاسها، يستشعر هالتها الروحية، وكأنها تحيط بالعقار كله مـن أعلى سـطحه حتى أخمص بواباتـه، حالة من اليقين تسـيطر على أنحاء

نفسه وتستجيب لها ارتجافات شغافه، ينتفض قلبه، تتسارع دقاته في جنون، تتسابق أنفاسه خلف أسوار الضلوع، تعدو.. ثم تعدو.. ثم تعدو، يا الله! ألن تهدأ هذه الأنفاس ولو للقليل من الوقت؟ يستقل المصعد الكهربي، تمر اللحظات وكأنها دهور، يتوقف المصعد أخيرًا بالطابق المنشود، ما له هكذا تسيطر عليه حالة من انعدام التوازن؟ ها هما قدماه تتجهان صوب الشقة دون إرادة منه، لابد أنها هنا.. يكاد يقسم على ذلك، أمواج حنينه هي التي تدق الباب، مؤكد أنها هي من تفعل؛ فهو لا يشعر بيديه على الإطلاق، دقيقة توق سيطرت عليه ثم ها هي إيمان تظهر خلف فرجة الباب مرحبة به، يمد يده إليها بآلية وهو لا يراها، فعيناه هناك معلقتان بآخر الردهة، حيث تقف سارة ممسكة بيد جويرية تداعبها وبجانبهما والدة إيمان، تلتقي نظراتهما معًا، يشعر بأنفاسه وكأنها كانت تجري به في سباق محموم منذ دهور، ثم حطت أخيرًا بين أضلعه، يُجيب على سؤال ظل يتردد هناك قُرب بوابات قلبه طوال سنوات الفراق الماضية، لا داعي لأن نستحضر السؤال الآن، يكفينا أنه أجاب عليه قائلًا «نعم... ما زلت أهواها».

* * * * *

بشرفة منزلهما تجلس نور إلى جانب شقيقها وائل يتناولان شراب الليمون المحبب إليهما، ترنو هي نحو شقيقها في حنو، إنه شارد منذ ما يقرب من الثلاثين دقيقة، تُطلق صفيرًا خافتًا من بين شفتيها اعتادت

مداعبتـه بـه، ينتبـه من غفلتـه ويلتفت إليها مبتسـمًا فتُسـائله قائلـة: ألم يحن الوقت بعد لتصارحها بحبك؟

يجيبها مرتبكًا: مَن تقصدين بقولكِ هذا؟

— أنت تدرك مقصدي جيدًا وائل.. أعني قصتك مع سارة.

— أي قصة تلك؟ لا قصة لي مع سارة ولا مع غيرها.

— ليـس هنـاك داعٍ للإنـكار أخـي.. كل ذي عـين يمكنـه أن يبـصر نظراتك التي تحتويها كلما رأتها عيناك، فما بالك إذًا بي أنا؟ شقيقتك الوحيـدة التي ربيتها على يديك.. أنا أشـعر بك وأعلم ما يجول في صـدرك جيدًا، أنت تتهيب هذه الخطوة منذ زمن، أضعتها من بين يديك قديمًا، فلا تكرر خطأك هذا لمرة ثانية.

— أنـتِ لا تدركـين شـيئًا نور.. مـا زلتِ صغـيرة، وهنـاك كثير من الأمور التي تخفى عليكِ.

— لستُ بصغيرةٍ أخي.. أنا أدرك جيدًا أنك لا تريد مفاتحتها في الأمر لأنك تشعر بواجبك نحوي، وتريد الاطمئنان عليَ أولًا.

— ليـس هذا فقط نـور، صدقيني.. هنـاك أمور أخرى، لـو أن الأمر مقتصر عليكِ لكان هينًا.

— إذًا أخبرني عما يقلقك غير ذلك.

صمـت هـو قليـلًا؛ فأردفت في خفـوت: أنت تضع حسـابًا للفارق المادي بينكما.. أليس كذلك؟

رفـع عينيه نحوها في صمت.. ولكنه صمـتٌ يتكلم، صمتٌ يشي بكل ما أخفـاه خلف جدران تلك السـنوات الطـوال، صمتٌ يكاد من شـدة وطأته أن يصرخ قائلًا «أجل.. هذا هو ما أخشاه».

هزّ رأسـه مؤيـدًا، فاقتربت منه وربتـت على يديه قائلة: يـا أخي الحبيب.. إنك حقًا على طول خبرتك بالحياة ما زلتَ لا تستطيع قراءة ما بين سطور النفَس والنفـس، لا تعرف كيف تسـبر أغوار الوجوه لتكشـف الحجـب عن المجهول الذي يقبع خلفها، أوتظن أن سـارة قد تفكر بتلك الطريقة أو أنها قد تعير هذي الأمور أي اهتمام؟! إن كنت تفعل فاسمح لي أن أخبرك بأنك مخطئ.

— أعلم أن سارة نقية النفس، صافية الروح، راجحة العقل، ولكن.. ولكن ماذا عن معاذ؟ من المحتم أنه يريد لشـقيقته الوحيدة أن تحيا في المستوى نفسه الذي عاشت به في بيت والديها أو في بيت زوجها السابق، هذا إن لـم يكن يفكر في أن تعلو بمستواها أكثر فأكثر.

قالت متعجبة: معاذ! لا أظن أن معاذ قد يفكر هكذا، إن عدم اختلاطنا به بسـبب سـفره بعد تخرجه للعمل بالخارج، أو بسـبب عدم اندماجه معنا وقتـما كان طالبًا لا يدعونـا للاعتقاد بأنه قد يفكر بتلك الطريقة.. حقًا نحن غير مقربَين منه كثيرًا، وربما كان لا يفضل صحبتنا على العكس من سـارة،

ولكـن الفترة التي سـبقت طلاقها ولهفته على تحقيق السـعادة لهـا، وعلى أن يطمئن عليها ويحقق لها ما أرادته، جعلني شبه متيقنة مما أقوله لك.

— وإن كان ظنكِ خاطئًا.. ماذا سأفعل وقتها؟

— وكيف لك أن تعرف إن كان خاطئًا أم صائبًا إن كنت لن تقدم على تلك الخطوة؟

فلتفعل ذلك وائل، لا تتركها تنساب من بين يديك كحبات الرمال، أطبق عليها براحتي قلبك أخي، فمثلها لا يُترك.

كان ينظـر إليها صامتًا، وكأنه لا يجد ما يقوله، فعاجلته متسـائلة: ما رأيك فيما قلت؟

— دعيني أعيد التفكير لبعض الوقت.

— أبعدَ كل تلك السنوات ما زلتَ محتاجًا لإعادة التفكير؟

— كل الأمـور تحتـاج منا لإعادة التفكير بين الفترة وتالياتهـا.. وعلى أي حال فأنا لن أتحدث إليها إلا بعد انقضاء أشهر العدة بوقتٍ كافٍ، لندعها تلتقط أنفاسها قليلًا، كما أني لا أرغب في أن أفاتحها في الأمر فتُعرض عنه خوفًا من التورط في علاقة جديدة بينما جروحها لـم تبرأ بعد، لنعطها وقتها كاملًا.

— كـما تريـد.. ولكنـي أعيدها عليـك مرة أخـرى، لا تتأخـر عليها كثيرًا.. فمثلها لا يُترك طويلًا أخي.

* * * * *

— إذًا فقد انفصلتِ عن زوجكِ أخيرًا.

— أجل.. انفصلت عنه منذ ثلاثين يومًا بالتمام... قالتها سارة في همسٍ خافت بينما عيناها ما زالتا تنظران لأسفل، لم تجرؤ على رفعهما إليه مرة أخرى، إنها ما زالت تعاني ويلات استرداد أنفاسها منذ أن رأته قادمًا نحوها، متخطيًا جمع الضيوف الذين يتواجدون معهما بالحفل، لم يلتفت إلى جويرية التي نادته، سلم على والدة إيمان في عَجل، ثم مد يده إليها بينما عيناه مثبتتان على وجهها، وكأن نظراته عطشى تريد أن تنهل من أنهار العسل بعينيها، ألقمته عينيها أولًا، ثم مدت إليه يدًا ترتجف حنينًا، تنتفض شوقًا، أسرعت أصابعه تحتضن أصابعها في توق ثائر حنون، ظل ممسكًا بيدها لفترة، كلاهما ساكن ينظر تجاه الآخر، بينما يتكلم الصمت بينهما، حتى قطعت إيمان حبائل الصمت بأن اقتربت وأمسكت بيد جويرية ثم طلبت من والدتها أن تصطحبها إلى المطبخ لترتيب بعض الأغراض الخاصة بالحفل.

وقتها فقط انتبها، ابتسمت سارة في حرج، وهمت بأن تسحب يدها من بين أصابعه، لكنه تشبث بها أكثر، جذبها برفق واصطحبها معه نحو الشرفة، سارت معه في هدوء ظاهري بينما أمواج الدماء تثور داخل أوردتها، تتجه صوب وجنتيها وكأنها تتبع نداءً مجهولًا يدفعها إلى هناك في جنون، شعرت بوجنتيها تكادان من شدة اندلاع اللهيب بهما أن تصرخا،

تـكادان أن تسـمحا لدماء الشـوق بداخلها بأن ترتحل صـوب قلبه هو.. حتى أتاها الخلاص في نبرات صوته التي طالما عشقت أنغامها تُسائلها في وله: كيف أحوالكِ سارة؟

لم تـدر إلا وهي تجيبـه دون تفكير: لقد انفصلت عـن زوجي.. ثم انتبهـت لتلـك الذلـة فأغمضت عينيها لهنيهـة ثم أردفـت: أقصد أنني بخير حال.

طـرب قلبـه لإجابتها هذه وابتسـم داخل أضلعه، عجبًا.. أويبتسـم القلب أيضًا؟.

عـادت أدراجها إلى كلماته التي ألقاها على مسـامع روحها منذ قليل «إذًا فقد انفصلت عن زوجكِ أخيرًا».

همـت بأن تجيبه عندما أتاهمـا صوت رامي يتنحنح قرب باب الشرفة قائـلًا: هلا انضممـت لنـا بالداخل نبيل؟ يتسـاءل الجميـع عن شريكي الجديد ويريدون تقديم التهنئة لكلينا صديقي العزيز.

ارتبكت سـارة وأسرعـت إلى الداخل بينما عينا نبيـل ما زالتا تنهلان من أنهار العسل بعينيها، حتى وإن أدارتهما مبتعدة عنه.

الفصل الثامن

السابعة والنصف صباحًا، أبواق حافلات المدارس المحيطة تزأر معلنة عن وصولها، أطفال كالملائكة يرفلون بالزي المدرسي، يستعدون لاستقلال حافلاتهم المدرسية، يودعون ذويهم بابتسامات تفوح بأنداء شمس الشروق، أنسام الربيع تعلن عن نفسها في خجل، بينما سارة ترقب كل ذلك من خلال شرفتها في الأعلى، لطالما أحبت هذه الأجواء، ولطالما تاقت نفسها إليها، وحلمت بالعودة إلى هنا حيث نشأت - في حي مصر الجديدة - وحيث أيام حياتها الماضية، جذبها شريط الذكريات إلى حي الزمالك حيث كانت تقيم هناك مع آسر، بالله ما أبعد المسافات بين حي الزمالك وحي مصر الجديدة! استردت نفسها من تلك المنطقة شديدة الوعورة حيث ألقتها مظلة الذكريات، هزت رأسها وكأنها تنفض عنها تلك الذكرى، واسترجعت عبق رؤيتها لنبيل ليلة أمس، أكان ذلك بالأمس؟ لا تدري حقًا.. فهي لم تنم حتى الآن، تنهيدة حارة خرجت

من بين شفتيها كان لها وقع السحر عليها، تنهيدة تحمل شذا عطره الذي اختزنته بين أنفاسها، تعجبت من ذلك، فكيف لنا أن نصطحب عطرًا بين أزقة حنايانا؟ أيعقل هذا؟ لم تطل تساؤلاتها كثيرًا، إذ دوى صوت رنين الهاتف المنزلي؛ فاقتطف برناته تساؤلاتها من منبتها.. ابتسمت لدوي صوته، لابد أنها إيمان تتصل لتطمئن عليها بعدما استأذنت سريعًا أمس وانصرفت مبكرًا.

التقطت سماعة الهاتف، وقبل أن يمنحها الوقت فرصة بدء الحديث أتاها نغم صوته قائلًا: آلو.

يا الله.. إنه هو، أهي نبرات صوته حقًا؟ أم هي ترانيم تتلى في معبدٍ قديم منذ أيام بعاد، صمتت لهنيهة تتشرب دفء صوته.. فأعاد استهلاله لمرة أخرى متسائلًا: آلو.. سارة؟

— نبيل... قالتها في خفوت وكأنها لا تصدق وقع صوته على أذنيها.

— نعم.. أنا نبيل، كيف حالك سارة؟

— أنا بخير.

— أعتذر إن كنت اتصلت دون استئذان، ولكنكِ رحلتِ سريعًا أمس، لم تتح لِيَ الفرصة لأن أطلب منكِ الإذن لأحادثكِ هاتفيًا.

— ... يجيبه الصمت، فيسألها في قلق: أغاضبة أنتِ من فعلتي هذه؟.

— بالطبع لا.. إنما لم أتوقع أنه أنت، ظننتك إيمان تتصل بي صباحًا كعادتها.

— أتعلمين؟ لقد راهنتُ على أمرين، لا... بل على ثلاثة أمور.

أتاه صوتها باسمًا: أي ثلاثة أمور تلك التي راهنتَ عليها؟

— أولًا.. على أنكِ ما زلتِ تستيقظين مبكرًا كعادتكِ، وثانيًا.. على أن رقم هاتف منزلكِ كما هو ولم يتغير بعد.

صمتَ للحظة ليمنحها فرصة التساؤل عن الأمر الثالث، لم تخب هي ظنه إذ سألته في عَجل: وثالثًا؟

— ثالثًا أنكِ لن تمانعي اتصالي بكِ.. أم أنكِ تمانعين؟

— وهل تظن أني قد أمانع سماع صوتك؟

علا صوت استرداده لأنفاسه، واستبق موجات الشوق حتى طالتها دفقات لفحه، صمتا لدقيقة كاملة يستشعر كل منهما نبض قلب الآخر، إلى أن سألته في همس: كيف حالك نبيل؟ سألتني عن أحوالي ولكني لم أعرف إلى الآن ما أحوالك؟

— أنا بخير حال ما دمتُ أسمع صوتكِ سارة.

أربكتها كلماته؛ فحولت مجرى الحديث قائلة: مبارك لك ولرامي على تلك الشراكة بينكما.

— بارك الله لي فيكِ سارة.. ولا حرمني سماع صوتكِ أو رؤية وجهكِ أبد الدهر.

أحس بوقع كلماته عليها، استشعر من صدى أنفاسها أن كليهما على نفس موجة الحنين،

أسرعت بجذب نفسها من جديد حتى لا تسحبها نسائم صوته حيثما يرغب هو، فعاجلته قائلة: أتصدق أنني لا أعلم حتى الآن طبيعة عملك الخاص الذي يشاركك به رامي؟

— أحقًا لا تعلمين؟ حسنًا.. دعيني أقص عليكِ الأمر منذ البداية.. بعدما تخرجت عملت لفترة كمحاسب بإحدى شركات القطاع الخاص إن كنتِ تذكرين؟ كانت وظيفة مناسبة لي في ذلك الوقت، ولكن عقلي أبى أن يتقبل فكرة أن أظل طوال عمري أعمل لدى أحدهم.. فكرت طويلًا في بدء مشروع خاص بي، قارنت بين وضعي كموظف بإحدى الشركات، حيث المرتب المنتظم ومواعيد العمل المحددة، والجهد الذي سأبذله خلف المكتب الذي منحونني إياه من جهة، وبين بدئي لمشروعٍ صغيرٍ من جهةٍ أخرى.. لن يكون الربح فيه منتظمًا في البداية، يحتاج إلى أغلب ساعات يومي تقريبًا، أبذل فيه أضعاف الجهد الذي سأبذله في العمل تحت إمرة الغير.. من الطبيعي أن السواد الأعظم من الناس كانوا سيختارون

الوظيفـة الأولى، حيث الأمان وعدم المخاطـرة، ولكن عقلي العنيد المتمـرد أصدر أوامـره إليَ وقتها بأن أسـعى خلف نيـل الصعاب؛ علهـا تـؤتي الثمار التـي أرتجيها ذات يـوم ليس ببعيد، لـم أكن قد تقدمتُ باسـتقالتي وقتها بعد، ولكني كنتُ قد بدأتُ أفتش خلف أسرار سـوق العمل عـن مشروع يحتاج إلى رأس مـال معقول غير مبالغ فيه، بحثت لعدة أشـهر حتى اهتديت إلى ما أنشـده، سأفتتح مكتـب توريدات صغير يقوم بتوريد المنتجات الورقية.. كالمحارم الورقية وحفاضات الأطفال وكبار السـن إلى دور المسـنين وبعض المراكـز الطبيـة الصغـيرة، لـم أحتـج في البداية إلا إلى شـقة تحوي ردهة وغرفتين.. أسـتخدم إحداهما كمخزنٍ مؤقتٍ، بالإضافة إلى مبلغ متوسـط من المال، كنتُ أمتلك حسابًا بإحدى مكاتب البريد بـه مبلغ مـن المال ليس كبيرًا كما كنتِ تعلمين، فتشـت عن أسـماء بعـض دور المسـنين وبعـض المراكز الطبيـة على شـبكة الإنترنت، بـدأت التقصي عن أماكن بيـع تلك المنتجات بنظـام الجملة، حتى توصلـت إلى بعـض المصانـع بضواحـي القاهـرة، ثـم تمكنت بعد ذلك مـن الوصول إلى مصانـع أخرى بمحافظات قريبـة نوعًا ما، وبدأت العمل.. شـيئًا فشـيئًا وجدته ينمو ويزدهـر، قررتُ وقتها تقديـم اسـتقالتي وتفرغـتُ له تمامًا، بـدأتُ أتوسـع في العمل بعد

ذلـك حتى أني اضطـررت إلى شراء مخزن مسـتقل، عرضت الأمر منـذ بدايته على رامي، ولكنـه لـم يكن مقتنعًا تمامًـا بالفكرة، حتى أتاني منذ ما يقرب من أربعة أشهر يسألني إن كنتُ ما زلت أرغب به كشريك معي في العمل.. هو ليس مشروعًا كبيرًا كما قد يحملكِ عقلـكِ على التصور، ولكنـه يحقق لي دخلًا مُرضيًـا، وهامش ربح يمكنني الاسـتعانة به واسـتثماره في بعض النواحـي الأخرى إن أنا أردتُ ذلك.

— أنا فخورة بك للغاية نبيل.

— لا تعلمين كم أنا سـعيد بقولكِ هذا، إن تعب كل تلك السـنوات الماضية يهون أمام الطريقة التي قلتِ بها ذلك.

— نبيل... أما زلتَ غاضبًا مني إلى الآن؟

— أتصدقـين إن قلـتُ لـكِ إني ما حملـتُ لـكِ بقلبي غير المـودة والحب والاحترام؟ لـم أشعر تجاهكِ بأي ضغينة قديمًا عندما رفضني والدكِ، لقد قدرت موقفكِ تمامًا.. حتى عندما علمتُ بخطبتكِ إلى آسر.. لـم أغضـب منكِ وقتها، صببـتُ جام غضبي على الظـروف التي فرقتنا، وضعتهـا نصـب عينيَ، عزمتُ على تخطيها، بينـما ظللتِ بقلبي بنفس موضعكِ سـارة.. بذات صورتـكِ القديمة التي لـم تتغير قط، ولن تتغير على امتداد العمر..

— لا تـدري نبيـل كم أراحني قولك هـذا؟ لا تعلم مقدار ألمي طوال تلك السنوات الماضية وأنا أتخيلك حاقدًا عليَّ، غاضبًا مني.

— كيف سـولت لـكِ نفسـكِ اعتقاد ذلك سـارة؟ أولسـتِ تعلمين مكانتكِ عندي؟

— ربـما كان البعـاد هـو السـبب الرئيسي في اعتقـادي هـذا، ولكنني صدقًـا كنتُ أعيش وأنا أحمل على عاتق قلبي وزر عدم استبسـالي في التمسك بعلاقتنا قديمًا.

— لندع ما مضى الآن سـارة.. لقد أوصد الزمـان أبوابه دون أرواحنا قديـمًا وأبى علينا أن نلتقي، ولكن ها هو الآن يُكفر عن خطيئته في حق قلبينا، سارة.. إنني ما زلت أُحب...

قاطعتـه قائلـة في رجاء: أسـتحلفك بالله ألا تكمـل، إن كنتُ أنا قد تحـررتُ مـن قيود كبلـوني بها قديمًا باسـم الـزواج، فأنت ما زلـت زوجًا لامرأة أخرى لا ذنب لها فيما بين قلبينا، ووالدًا لطفلين صغيرين، واجبك نحوهم لا يقتصر على الإنفاق فقط، واجبك يسـتدعي أن تكون لهم عقلًا وقلبًا، وجسدًا وروحًا.

— وهل حبي لكِ سارة ينتقص من واجباتي تلك؟

— نعـم نبيل... إنه لا ينتقص من واجباتك نحوهم فقط، بل إني أراه اعتداءً على حقوقهم كذلك.

— هـل أفهم من كلامـكِ هذا أنـكِ تريدين لنـا الابتعاد عـن بعضنا البعض لمرة ثانية؟

— أنـا لا أجرؤ على طلب ذلك... أتظـن أني قد أمتلك القوة للابتعاد عن محيط حياتك نبيل؟

تنهد قائلًا في قنوط: فلماذا تريدين إذًا؟

— لنكـن أصدقاءً.. فإن كان القدر قد ألقـى بنا على قارعة الافتراق، وأبـى أن يجمعنا معًا تحت سـقف واحد كزوجين، فما زال بإمكاننا انتقاء الصداقة من ضمن قائمة الخيارات.

تَمسـك هـو بطوق النجـاة الـذي ألقته إليـه بينما كان يصـارع أمواج خـوف ابتعادها عنـه لمرة ثانيـة، وافقها عـلى اقتراحها، وهـل كان يملك أن يعـترض؟ أويُسـأل الأسـير بين جدران ظـلام اليأس أنْنْفـُذ لك ضوء الشـمس أم لا؟ ليصطحبها معه إذًا في قـارب تلك الصداقة التي تريدها، ليبحرا سـويًّا وسط أمواجها، علّ تيار الصداقة هذا يلقي بهما فوق شاطئ الحب لمرة أخرى، وعلها وقتها تخضع لسـطوة شمس الهوى عندما تناديها من خلف تلالها الذهبية، على قيد هذا الأمل أجابها:

— حسنًا سارة.. أنا أوافق على اقتراحكِ هذا، لنكن أصدقاء إذًا.

الفصل التاسع

«منذ متى لـم أخبرك بأنك همس الروح؟
ألدهور ثوانٍ؟ أم لدقائق توق؟
ماذا؟ من عشر ليالٍ يا عمري!
أتقول بأني صائمة عن لفظ العشق.. لليالٍ عشر؟
عجبًا لفؤادي المشتاق!
إذ كيف تَحمل أن تهجره حروف البوح؟
وهيامي بِك.. كيف استأمنتُ نداءاته ويخون العهد؟
أويعقل أن أسلو لغة أنشأتُ جميع معاجمها مِن أجلك أنت؟
حسنًا...
مردودٌ خطئي يا عمري يا نبض النبض
موصولٌ قلبي بشغافك رغم تنائينا...

مرهونٌ صوتي قيد الأسر بهمس سحائب ماضينا

فلتسمع مِني دقاتك ترنيمة عطر

ما زلتُ أحبك رغم البعد ورغم الهجر...

دَوّن في قلبي تأريخًا لحكاية عمر

يبدأ مِن يوم تلاقينا..

ويدوم طالما يدوم الفجر..

ما زلتُ أحبك يا عمري..

رغم الأنواء..

ورغم البعد..

ورغم الهجر»

انتهت سارة من ترديدها على مسامع نبيل؛ فعَلا ضجيج نهر الصمت بينهما، صمتٌ تختلف مفردات معانيه بين كل منهما، صمتٌ مشوبٌ بالخجل، مختلطٌ بدعوات سارة بألا تكون قد خانتها أحرف أبجدياتها وأفصحت عما يدور داخل قلبها، بينما يقف صمت نبيل على الضفة الأخرى متدثرًا بسحب الأماني، ذائبًا بوشوشات الفرح حينما تتهادى ابتساماتها فتحيطه من جهات ست، أغمض نبيل عينيه بينما أوتار صوته تردد حروف اسمها في صوت متهدج: سارة...

وكأنها أحست به، فأغمضت عينيها هي الأخرى، وأطلقت العنان لمساحات الصمت بينهما حتى تصل أقصاها، دقيقة كاملة مرت، تلاشت

خلالها حدود الماديات حولهما، غابا عن الوجود، حتى كرر هو اسمها لمرة أخرى وكأنه يتنفسه: سارة...

— نعم نبيل.

— أي جمالٍ هذا؟

— أحقًا أعجبتك؟

— كيف لكِ أن تتساءلي إن كانت أعجبتني أم لا؟ إنها قد احتلتني تمامًا.. أوكنتِ تخبريننني أنكِ انقطعتِ عن كتابة الأشعار والخواطر طوال الفترة الماضية؟

— هذا هو ما حدث بالفعل.. طوال مدة زواجي لم أمسك بالقلم ولو لمرة واحدة لأسطر ما أشعر به، كنتُ أكتفي بالقراءة فقط، حتى وجدتُ يدي أمس وكأنها لا تنتمي إليَ، ظل قلبي يمليها همساته؛ فتُذعن له.. لم أدر إلا وقد انتهيت مِن كتابتها، وعلى قدر فرحتي بعودة شيطان الكتابة إليَّ بعد انقطاع دام لتسعة أعوام، على قدر خوفي من عرضها عليك.

قاطعها نبيل في مرح يشوبه بعض العجب: مهلًا سارة، مهلًا.. لتسمحي لي بأن أقدم اعتراضي وبأن أُعبر عن دهشتي في الوقت نفسه.

ضحكت قائلة في مرحٍ مماثل: هكذا أنت دائمًا نبيل.. تفضل وقدم حيثيات اعتراضك، ثم لنستمع بعدها إلى دواعي دهشتك.

— حسـنًا.. تتلخـص حيثيات اعتراضي في عبـارة تتكون من كلمتين (شـيطان الكتابة).. فأي شيطانٍ يجرؤ على أن يتلبسكِ سارة؟ وإن كان شـيطان الكتابة قد يتراءَى لمن يسـطرون أرواحهم في صورة أحرف وكلمات.. فأنّى له أن يتهيأ لكِ أنتِ؟ إن مَن يتلبسكِ سارة لابد أن يكون ملاكًا لا شيطانًا.. حُرِم على الشياطين منذ زمن بعيد الاختلاط بالمخلوقات النورانية التي على شاكلتكِ.

ابتسمت لوقع كلماته على نفسها قائلة برقة: هذا هو اعتراضك، فماذا عن دهشتك إذًا؟

— إني لأدهش من خوفكِ من طرح ما كتبتِه على مسامعي.

— خشـيت ألا يعجبـك، أو أن يكـون الوهم قد احتلنـي وهيأ لي أنه يمكنني العودة إلى الكتابة لمرة أخرى.

— أتمزحين سـارة؟ إن هذا وربي من أجمل ما سمعت من كلمات، لـم تلتق أذناي بمثل تلك الروعة من قبل.

— أحقًا؟

— حقًا سارة...

أراد أن يُعلمها أن رسالتها قد طرقت أبواب قلبه هناك ولكنه أعرض؛ خشـية أن تعتبر أن كلامه هو انتقـاص لذلك العهد الذي قطعاه منذ أربعين يومًا كاملة بأن يكونا صديقين فقط.. حول دفة مشاعره بأن قال لها: أتعلمين

بـأني قد انقطعـت أيضًا عن كتابة خواطري منذ ما يقرب من خمسـة أعوام؟ شغلتني أعباء الحياة وجرفني فيضان العمل بعيدًا عن مفردات عالمي المعتاد، كما أني نادرًا ما أصبحت أقرأ هذه الأيام، اللهم إلا بعض الصحف فقط، لذا فأنا سعيد للغاية بعودتكِ إلى الكتابة مرة أخرى سارة، هَمّ بسؤالها إن كانت قد كتبت شـيئًا غير ما أسمعته إياه لكن هاتفه الجوال أخذ في الرنين، التقطه بيده الأخرى وقال دون تفكير: عجبًا! إنها ليلى.

بتر عبارته معتذرًا لها: عفوًا ولكنها غير معتادة على الاستيقاظ مبكرًا هكذا، لابد أن شيئًا مهمًّا قد حدث..

— لا عليك نبيل.. فلتجب اتصالها.

— سأعاود الاتصال بكِ مرة أخرى، أستودعكِ الله.

— أستودعك الله.

أغلقـت هاتفهـا الأرضي بزفـرةٍ حـارةٍ أفلتت مـن بين شـفتيها، صاحَبها إحساسـها بشيءٍ ندي لامس خدها الأيمن على اسـتحياء، رفعت إحدى يديها تتلمسـه في رهبـة، إنها تعلم ماهيته.. غير أنها تخشـى الاعـتراف، تدرك أن ذاك الـشيء ما هو إلا دمعة.. غافلتها وصرحت بـما تأبى هي الإقرار به، قُضي الأمر إذًا.. ولـم يعد السكوت خيارًا مسموحًا به بعد الآن، لابد لها من حل ما، لابد.

* * * * *

— لِـمَ أنتِ صامتة هكذا إيمان؟

رفعت إيمان وجهها نحو سارة بينما يحتويها الذهول بحضوره الثقيل وتغشى أنفاسها الدهشة، يعلو إيقاع طبول الحرب بداخلها، نظراتها الخرساء تنطق وتوجه أيادي الاتهام نحو صديقتها، يمتزج كل ما سبق ويخرج على هيئة عبارة تشكلت حروفها في استنكار باهت: لا أستطيع تصديق ما فعلتِه سارة!

— وما الذي فعلته إيمان؟

قالتها في خفوت، في خجل.. بينما يعلو استنكار إيمان:

— -أنتِ تدركين جيدًا ما أقدمتِ على فعله.. كيف استطعتِ فعل ذلك؟ وكأني لا أعرفك!

— لِـمَ تقولين ذلك؟

— لأن سارة التي أعرفها لا تقيم علاقة مع رجل متزوج مِن امرأة أخرى.

— أنا لا أقيم علاقة معه، إنما نحن مجرد أصدقاء.

— أصدقاء! أوتظنينني بلهاء أم ماذا؟

— حاشا لله إن كنتُ أقصد ذلك.

صرخت بها قائلة: فأنتِ تخدعين نفسك إذًا.. لا صداقة بعد الحب أبدًا، إنما هي حجة ابتدعها قلبكِ كي تستطيعين الاحتفاظ به في محيط

حياتـكِ، دليـل تحتجين به أمام العقـل والمنطق عندما يصرخـان بكِ أنكِ مخطئة وآثمة.

قاطعهـا صوت صديقتها باكيًا: أنا لسـت بآثمة إيمان.. صدقيني كما اعتدت تصديقي دائمًا، أقسم لكِ أننا تعاهدنا على ذلك، سنكون أصدقاء فقط، غير مسموح لأي منا الاقتراب من دائرة الحب المحرمة.

— أوتصدقين كلماتكِ هذه؟

— نعـم أصدقها، لأني أعلم نفسي جيدًا، وكنُـت أظن أنكِ تعرفينني أيضًا.. لسـتُ أنا من تسـعى خلـف رب أسرة لـه زوجة وطفلان صغيران، كيف تناسى قلبكِ ذلك؟

أحاطتها إيمان بذراعيها واحتضنتها، ثم قبلت جبهتها قائلة: فلتهدأي حبيبتـي بـالله عليكِ، أنـا أعرفكِ جيـدًا، وأوقن أنكِ لا تسـعين خلفه ولا ترغبـين في اختطافه من بين أحضان زوجتـه وطفليه، ولكن الحب حبيبتي لا سـيطرة لنـا عليـه، لا نسـتطيع أن نقـرر أننا لن نحـب هذا الشـخص، الحـب ينسـل إلى دواخلنـا دون أن ندري، وقبل أن نعي ذلك نجد أنفسـنا وقد وقعنا أسرى شباكه.

— لا تقلقي من جهتي، فأنا أحتاط لذلك الأمر جيدًا.

ربتـت إيمان عـلى وجنتيها وكأنها تهدهد طفلًا صغـيرًا قائلة في حنو: كيف لا أقلق وأنا أرى نظراتكِ تصرخ بحبه.

أعرضت سـارة بعينيها بعيدًا، وانسـاب فيضـان الدموع من داخلها فأجهشـت بالبـكاء، احتضنتها إيمان من جديد قائلـة: أدرك حبيبتي ذلك الـصراع القائم ما بـين قلبكِ وعقلـكِ، وأرجو مـن الله أن ينتصر صوت العقل بداخلكِ، وإن كنتُ أشك في هذا.

أخرجت سـارة نفسـها من بين أحضان صديقتها متسـائلة: ما الذي يدعوكِ لقول ذلك؟

— لأنـك أخفيـتِ عني الأمر لما يقرب من شـهرٍ ونصف الشـهر، فإن كنتِ تصدقين حقًا ما تزعمه شفتاكِ لكنتِ أفصحتِ لي منذ البداية.

في خجل قالت: كنت أخشى ألا تتفهمي موقفي.

— ومنذ متى لا أتفهمكِ حبيبتي؟ في الحقيقة أنكِ كنتِ تخشـين لومي لـكِ، كنتِ تتهيبين هذه المواجهة التي تحـدث بيننا الآن، خِفتِ أن أضغط عليكِ لتبتعدي عنه، أليس كذلك؟

أومأت برأسها دون أن تنطق، فسألتها إيمان: ما الذي تتوقعين حدوثه في الأيام القادمة؟ كيف ستسـير صداقتكما المزعومة تلك في رأيكِ؟ وهل

ستتمكنين من الكتمان طويلًا؟ أم أن نبض قلبكِ سوف يعلن عن نفسه في نهاية الأمر؟

— أرجو ألا يحدث ذلك إيمان.. أنا لا أدري حقًا ما الذي تخبئه لنا الأقدار، ولكني أعدكِ بأني سأبقى ملتزمة بذلك العهد الذي قطعته معه، وسترين كيف سأُحكم السيطرة على قلبي.

— سنرى حبيبتي.

تنهيدة واحدة خرجت من قلبيهما سويًّا، تحمل مشاعل الأمل في أنفاس سارة، بينما تُشهر خناجر القلق داخل صدر إيمان، أيهما ستعلو كلمته؟ هذا ما ستفصح عنه قادم الأيام.

الفصل العاشر

— كيف حال شريكي الهُمام؟

أجفـل نبيل منتفضًا عندما اقتحم عليه رامـي المكتب هاتفًا هكذا في مـرح، قام واقفًا أولًا ثم هَمَّ بضربـه مازحًا وهو يقول: رامي.. متى تكف عن تصرفاتك الصبيانية هذه؟

— سأكف عنها حينما تكف أنت عن التحليق في عوالم الخيال، أوكلما دخلـت عليـك حجرة مكتبـك أجدك هكـذا؟ ما بك يـا رجل.. أتُراك عاشقًا؟

ازذرد نبيـل لعابه في ارتباك وخفض عينيه قليلًا ورفعهما جهة رامي، ثـم وضـع إحدى يديه على كتـف رامي يدعوه للجلـوس قائلًا في جدية: فلتجلس قليلًا، فأنا أريد محادثتك في أمر مهم.

— خيرًا إن شاء الله.

— هو خير بالتأكيد يا صديقي.. أنت تعلم أنني كنتُ عازفًا عن الزواج لمدة طويلة، كنتُ أريد تأمين مستقبلي أولًا، تعلم كذلك أني لستُ محظوظًا مثلك لأتزوج عن حب، وأن زواجي من ليلى هو زواج تقليدي بحت كأغلب زيجات عصرنا الحالي، لا أنكر أنها زوجة صالحة، رقيقة، هادئة الطباع، تجيد الاعتناء بالبيت وبالطفلين، وأنها وفرت لي المناخ المناسب لأستطيع الوصول لأهدافي وتحقيق طموحي، لم تتذمر يومًا من قضائي لأغلب الوقت خارج المنزل، ولا من عودتي متعبًا مرهقًا راغبًا في النوم فقط، ولكن.. كان هناك دائمًا شعور يلازمني بفقداني لشيء ما، شعور بالافتقاد ينتابني إن كنتَ تفهم ما أعنيه.. إحساس غريب بأن حياتي هذه ليست هي حياتي في واقع الأمر، وكأنها مسرحية تُعرض على خشبة الحياة وأنا أحتل مكاني وسط صفوف المشاهدين، أراهم ينفعلون معها، ينبهرون أحيانًا، يصفقون أحيانًا، وأحيانًا أخرى تنتابهم الشفقة على شخصي داخل العرض المسرحي، الغريب في الأمر أنني لا أشاركهم انفعالاتهم تلك.. أشاهد فقط ولا أبدي أي ردة فعل كانت.

صمت قليلًا ليلتقط أنفاسه بينما رامي ينظر إليه وكأنه يستكشف المجهول خلف كلماته، حالة من الترقب احتلته للحظات ثم قطعها قائلًا:

— حسنًا.. إن كل ما تحكيه قد ينتابنا جميعًا في أحايين عدة، ولكن لا أدري لِـمَ أشعر بأنك تخفي أمرًا ما خلف تلك المقدمة الطويلة؟ فهلا أفصحت عما تريد قوله مباشرة؟.

شـهيق طويل اسـترقه نبيل وصل به لآخـر حدود بوابـات قلبه، ثم أطلـق العنان لكلماته في زفـرةٍ حارةٍ قائلًا في عَجـل: دون مقدمات طويلة أنا أرغب في الزواج.

هز رامي رأسـه مبتسـمًا في سـخرية مريرة: كنتُ أتوقع ذلك.. وأنت بالطبع تريد الزواج من سارة، أليس كذلك؟

— أجل.. هي سارة، ولكن ما بِك تقولها هكذا في مرارة؟

— لأني استشـعرت الأمر من البداية، منذ ذلك الحفل الذي أقمناه احتفالًا ببـدء شراكتنا، جئتُ إليك وقتها وسـألتك عن شـكوكي هذه ولكنك أنكـرت.. بـررت لي الموقـف بأنـك تفاجـأت بوجودهـا فلم تسـتطع التحكـم في ردة فعلـك، بعدهـا لاحظتُ تلـك التغـيرات التي طرأت عليـك، فحدثتك في الأمر لمرة ثانيـة، فنفيتَ أيضًا.. أخفيتَ الأمر عني لشهور عدة، ثم تسألني الآن لِـمَ أحدثك بمرارة؟

— حنانيـك صديقـي.. حنانيك، عندما سـألتني في البداية أجبتك بصدق عما كنت أشعر به وقتها.

— وبعد ذلك؟

— بعد ذلك كنتُ أقاوم شعوري تجاهها.. هي طلبت أن نظل أصدقاءً، وكنتُ أريد الالتزام أمامها وأمام الجميع بهذا الأمر، ولكن الله أراد دون ذلك.

— إنما أنت من أردت ذلك نبيل.

— لِـمَ أنت منفعل هكذا؟

— لأنـك تعـترف بأنـك تمتلك حيـاة مسـتقرة يحسـدك عليهـا الكثيرون، لديك زوجة صالحة تحبك وتسـعى لإرضائك بشتى الطرق، رزقك الله بطفلـين رائعين، عملك ناجح ومسـتقر، ألا ترى كل تلـك النِعم التي تحيطك أفضالها؟

— أنـا لـم أنكرها لحظة واحـدة.. لقد بـدأت كلامي معـك باعترافي بفضل الله عليَ بوهبي كل تلك النعم مجمعة، إنما كل ما أريده هو أن أحظى بنصيبي من السعادة في هذه الدنيا.. أرغب فقط في استشعار لذة الحياة كغيري.

— وكيـف تحظـى بنصيبك من السـعادة مـن وجهة نظـرك الخاصة؟ أعن طريق زواجك من امرأة أخرى غير زوجتك؟

— سارة ليسـت مجرد امرأة أخرى.. أنت تعلم أنها حب العمر بالنسبة لي، لـم تتح الحياة لي فرصة الاقتران بها قديماً، أدارت ظهرها لكلينا معرضة

عنـا، ولكن ها هي الآن تبتسـم لنا وتمنينا مـن جديد، لو أنك مكاني أما كنتَ ستغتنم تلك الفرصة؟

— ومنـذ متـى نحيا عـلى اغتنـام الفرص بغـض النظر عـن إيذائنا لمشاعر الآخرين؟

— أنا لن أؤذي أحدًا بتصرفي هذا، إنما فقط أستخدم حقًا قد شرعه الله لي.

— وليـلى؟ ألم تفكـر بهـا ولو للقليـل من الوقـت؟ ألن تؤذي تلـك الزيجة مشاعرها وتجرح أنوثتها؟ وهي التي لـم تر منها قط غير الحب والطاعة.

ربـت نبيل على كتف صديقـه مهدئًا: فليطمئن قلبك الحنون رامي.. إن ليـلى لـن تعلم بالأمر، فأنا أعددت العدة كاملـة وتهيأت لكل شيء، لا تقلق يا صديقي، أعلم أنك تريد لي كل الخير.. ولكن صدقني أنا سأكون بخير إذا ما تزوجت سارة، فأنا وهي نستحق أن نحيا سعداء، ولن نجور على حق أحدهم بسعادتنا هذه.

هدأ رامي قليلًا يلتقط أنفاسـه، هو يرغـب في أن يرى صديقه هانئًا، لا يدري كيف سـيحقق نبيل ذلك دون المسـاس بمشـاعر ليلى التي يحمل لهـا كل الود والاحترام على الرغم من عدم التقائهـما كثيرًا؛ فأطرق لهنيهة ثم قال: وهل تحدثت مع سارة في هذا الأمر؟

— ليس بعد.. إنما أردت إطلاعك عليه أولًا.

— إصرارك هذا يوحي إليَ بأنك متيقن من موافقتها على الزواج منك.

— أنا متيقن إلى حد بعيد من موافقتها، أعلم أنها تحبني كثيرًا، ولكنها مثلك تخشى المساس بحياة ليلى وتدمير البيت إن تم لنا هذا الأمر.

— وماذا إن كان ظنك خائبًا ورفضت هي الزواج منك؟

— لن ترفض.. صدقني، لقد أعددت العدة لكل شيء كما أخبرتك؛ فأنا لم انتظر هباءً طوال ستة الأشهر الماضية منذ التقينا من جديد، إنما كان انتظاري لأوقن أن جميع حصون اعتراضاتها قد حوصرت، وأن كل قلاع مقاوماتها قد دُكت، وأنني أحكمتُ السيطرة على كل مداخل نفسها.

— وكأني لا أعرفك البتة.. كأني أمام شخص غريب عني لا يمتُ لي بأي صلة.

— إنما أنا ذات الشخص الذي عرفته قديمًا على مقاعد الدراسة، كل ما في الأمر أنني أحاول استعادة حقي المسلوب من بين فكي الحياة؛ لذا وجب عليَ تطويع الصعاب وتمهيد العراقيل التي قد تصادفني في رحلتي لاسترداد هذا الحق.. كل ما أرجوه منك هو أن تثق بحسن تقديري للأمور، وسترى أني كنت على حق.

هز رامي رأسه شاردًا وكأنه يقول «سنرى يا صديقي.. سنرى».

* * * * *

الساعة تقترب من الثالثة فجرًا، حيث الظلام أعلن سيادته التامة منذ ساعات طوال، امتدت أياديه خلالها وبسطت نفوذها على كل الموجودات، بينما ذاك الضجيج الذي كان يمتلك فضاء الكون أعلن استسلامه هو الآخر أمام مواكب السكون، معظم الناس طاوعوا نداءات الطبيعة، هادنوا وشوشات النوم، واستمعوا لهمساتها، يتقلبون فوق مضاجعهم تتجاذبهم سحب الأحلام، فما باله جسد سارة يعلن تمرده ويرفض الانصياع مثلهم؟ منتبه هو، متيقظ يرفض الاستسلام، يتركها هكذا تتقلب فوق فراش الحنين، تحاول دفع عقارب الوقت عله يمضي، تدفعه بملل.. بتعودٍ متعمدٍ، ثم بإصرارٍ مميت، جافاها النوم منذ ليالٍ عشر، أصبح يزورها غُبًّا لدقائق معدودة، ثم يرحل ويتركها كأرض جفت سواقيها، فتشققت وغدت غير صالحة لاستنبات قوافل النوم إذا ما مرت بها على حين غرة، ها هي تنهض من فراشها، تتجه صوب المكتب.. تضيء المصباح وتمسك بالقلم؛ لتسكب نبض مشاعرها داخل كؤوس الأوراق...

«ألم يكن بمقدورك أن تترك لي شيئًا منك؟ أسكن إليه كلما اجتاحني بركان طيفك، ألا تعلم كم قاسية هي معاول الحنين؟ تزلزلني صرخاتها، تقتات على نبضاتي، تُحيلني وخزات صدى صوتك حين يتراءى لي وسط

العدم.. رمادًا تذروه عاصفة الاشتياق، شحيحٌ هو الهواء وأنت لستَ هنا، شـحيحٌ حد التلاشي، حد العدم، تائهٌ نبـض قلبي في حضورك، فكيف هو الحال عند الغياب؟

فيـا قاسـيًا، ويـا قاصيًا.. أسـتمرأتَ عذابـات روحٍ أسـكنتك وضح العين؟ أم استعذبت نداءات البعاد؟».

انتهت من طرح أحاسيسها أرضًا، ثم ألقت القلم وأجهشت بالبكاء، هـي تعلم سر قلقهـا وعذاباتها طوال الأيام الماضية، إنه نبيل.. منذ أن ابتعد عنهـا ليمنحهـا فرصة التفكير في أمر زواجها وهـي هكذا تتقلب فوق جمر الاشـتياق، تتجاذبهـا مخالـب الحنين، لا حيلـة لها في الابتعاد عنـه لأكثر من ذلك، هو أعلنها لها صراحة بأنه لن يكمل دوره المنوط به في تمثيلة الصداقة هذه، ما زال صوته يتردد بأنحاء عقلها في إصرار «أنا أحبكِ سـارة، أحبكِ وأريدكِ زوجة لي»، يا الله! لكم تشـتاق إلى صوته، إلى لفتاته وسـكناته، ها هو شريط الذكريات يتداعى أمام ناظري روحها من جديد...

آخر لقاء جمعهما سـويًّا، توسـلات عينيه، نبرات صوته، أحرف كلمة «أحبكِ» التي شـكلت كونها واحتلت وجودها عندما نطقتها شـفتاه، لمسة أصابعـه لوجهها في رجاء، صراعاتها مـن الداخل، عقلها وقلبها، لا... بل

عقلهـا وقلبه هو، قلبه الذي امتلكها منذ سـنوات طوال، عقلها يصرخ فيه وفيها، يصرخ فيهما معًا: وماذا عن ليلى؟ لا ذنب لها فيما بيننا.

فيجيبهـا قلبه في ولع: لن تتأذى، صدقيني.. لأن أؤذيها، فأنا لا أجرؤ على ذلك.

يحتج عقلها منتحبًا: ستتأذى عندما تعلم.

يجيبها قلبه في إصرار مستميت: لن تتأذى.

فيصرخ عقلها من جديد: بل ستُذبح.

تحتضنها تنهدات روحه: لن تعلم.. صدقيني لن تعلم.

ترفع عينيها إليه في دهشـة بينما عقلها يتسـاءل في جنون: كيف ذلك؟ إن القانون يستلزم إعلامها بالأمر.

يجيبهـا بركان قلبه هادرًا: ليس إذا عقدنا اتفاقًا مع المأذون، سـيعلمها ولكن ليس بشكل رسمي، سيرسل لها إعلانًا على عنوانٍ وهميٍ غير عنوانها.

تنتابها رجفة استنكار: انتفق معه عليها؟ كيف يمكننا أن نفعل بها ذلك؟

تهدهدها نظرات الحب بعينيه لتستكين: إنه اتفاق مشروع، إنما سنفعل ذلك من أجلها هي.. من أجل اسـتمرار حياتها هانئة.. لن نعلمها لننقذها من كبرياء قد يدفعها لهدم البيت انتصارًا لكرامتها.. ليس أمامنا من سـبيل

آخر.. نحن لن نغضب الله.. سنمارس حقنا الذي شرعه لنا.. نحن نستحق ذلك سارة .. نستحقه.

تتسارع أنفاسها في وجل، يقترب منها.. أنا أحبكِ سارة.. تذكري أني أحبكِ.

تجيبه زفراتها في وهن: أنا أيضًا أحبك ولكن لا أدري ما العمل؟

يحيطها صوته في رجاء: فلتوافقي سارة.. بالله فلتوافقي.

— لا أدري ما العمل؟

— أنا أحبكِ سارة.. سأمنحكِ فرصة للتفكير، ولكن تذكري خلالها أني أحبكِ.. أحبكِ.

تحتلها الكلمة، تلقيها وسط يم قلبه بقوة، يا الله! ما أصعب هذا اليم! إنها تحتاجه كي تنجو، لن تنجو إلا به، ما زالت تصارع أمواج الذكرى.. يعلو طوفان «أحبكِ» عاليًا فيغرقها، تتجاذبها الأحرف، تضرب بأيادي الأمل فيض الموج، تطفو فوق أسطح الذكريات، تحاول انتشال أنفاسها في قنوط، ثم وسط صخب الصراعات تأتيها كلمة «أحبكِ» من جديد، تتشكل أمامها في ضبابية، تتراءى لها هذه المرة كطوق نجاة؛ فتسرع صوبه.. تتشبث به، تلهث أنفاسها، تستجمع شتات نبضاتها، توجهها صوب بر الخلاص.. ينتصر صوت قلبه على نداءات عقلها فيخضعه،

تعلم الآن أنها ستجيب رجاء قلبه بالموافقة، نعم.. ستتزوجه.

تنتبـه لصـوت دقـات السـاعة تخبرها أن قوافـل الذكـرى احتلتها طـوال خمس سـاعات كاملة.. إنهـا الثامنة صباحًـا الآن، تقف في إنهاك وتتجـه صوب الهاتـف، تمسـكه.. تُكونُ رقمـه في إعيـاء، يأتيها صوته هامسًا: سارة...

— حسنًا نبيل... لنتزوج.

الفصل الحادي عشر

انطلقت سيارة سارة متخطية حي مصر الجديدة بأكمله صوب وجهتها التي تقصدها، لقد أجلت تلك الزيارة كثيرًا هذه المرة، تصعد بسيارتها الكوبري بينما تعبث بروحها الأفكار، لكم عانت طوال الفترة الماضية، كادت أن تسقط مرات ومرات ولكنها في النهاية صمدت، صوت نفير السيارة الخلفية يستحثها الإسراع، يبدو أنها شردت من جديد.. نظرة خاطفة منها إلى المرآة الجانبية، ثم تشير بيدها إشارة خاصة معناها «أن يمكنكم المرور» تسرع السيارة الخلفية وتتجاوزها؛ فتتطاير بعض خصلات شعرها بفعل اندفاع الهواء، أو ربما بفعل الملل، ابتسمت في تهكم.. أهي تدعوها للإسراع هي الأخرى؟ حسنًا.. فلتزد من ضغطها قليلًا على دواسة الوقود لتنتهي من هذا الكوبري، تم لها الأمر.. إنها في طريق صلاح سالم الآن، تمر من أمام ذلك المسجد الشهير، تلزم الجانب

الأيسر وتدور بالسيارة مع الملف، تنطلق في الاتجاه المقابل جهة مقابر الغفير، تتجه يمينًا ثم تبدأ في التباطؤ، تتخطى الشارع الأول فالثاني، حسنًا.. ثالث شارع هو المقصود، تتوقف أمام ثاني مقبرة وتنظر إلى اللافتة الرخامية المثبتة أعلاه، تخرج من السيارة ومعها سلسلة المفاتيح، تصعد درجتين ثم تفتح القفل وتدلف إلى الداخل، تُقرؤ موتاها السلام في البداية.. هنا ترقد أمها وخالتها - رحمهما الله - إلى جانب بقية أفراد عائلة أمها، هي زيارة تقوم بها شهريًا تتبادلها مع تلك الزيارة إلى مقابر عائلة والدها بمدينة نصر، عودت نفسها على هاتين الزيارتين، لكن نفسها كانت تهدأ وتستكين هنا أكثر، أخذت تتلو بعض آيات الذكر، ثم اتجهت صوب ذلك الكرسي جهة اليمين، كانت قد أحضرته هنا منذ شهور لتجلس عليه بينما تحدث روحي أمها وخالتها كما اعتادت أن تفعل كلما أتت، أزالت الأتربة العالقة علية بمحرمة ورقية وضعتها داخل كيس بلاستيكي ثم بداخل حقيبتها، تنفست بعمق وهي مغمضة العينين، ثم فتحتهما مُحَدثة أمها وخالتها:

— كيف حالك أمي؟ وأنتِ خالتي؟ اشتقت إليكما كثيرًا، لم يأتني طيفكما زائرًا بالأحلام منذ أكثر من أسبوعين، أأنتما غاضبتان مني يا ترى؟ لا أظن ذلك.. فأنا أعلم قدر حبكما لي.. أتعلمان؟ قد حدثت الكثير من الأمور المهمة خلال الشهرين الماضيين؛

لـذا تأخـرت عليكـما ولـم أحـضر في موعـدي بالشـهر الماضي.. لقـد طلبني نبيل للـزواج، أتصدقان ذلك؟ بعـد كل تلك الأعوام وكل مـا حـدث قديمًا يجمعنـا الله من جديد، غـير أن طلبه هذا قد أدخلني في دوامة من الصراعات النفسية لأيام عديدة، ثم حسمت أمـري في النهاية وأعلنت له موافقتـي، اتفقنا على ألا نخبر زوجته بشـأننا في بادئ الأمر حتـى لا ينهدم بيته، فـترة قليلة يتدبر خلالها أمـره ويمهد لها ثـم يصبح الوضع ملائمًا للإفصـاح عنه، ولكن لا تقلقا.. فهو زواج رسـمي على سنة الله ورسوله، غير أننا سنحتاط بشـأن زوجتـه لبعـض الوقـت لا غـير، يمكنكـما بالطبـع تصور حالتي النفسـية خـلال تلك الفترة، إذ كيف سـأخبر معاذ بذلك؟ هـل أخـبره بحقيقة أن نبيل مـا زال متزوجًا بالفعـل ولديه طفلان صغـيران؟ أم أُجمـل له الوضع قليـلًا وأخفي عنه بعـض الأمور؟ وإن فعلـت ذلك.. أأخبره أن نبيـل منفصل عن زوجته؟ أم أنه قد طلقها بالفعل؟ تسـاؤلات عديدة اسـتغرقتني أسـبوعًا كاملًا قبل أن أحسـم أمري في هذا الشـأن، سـأخبره أنه منفصـل عن زوجته وأنـه لا يريـد تطليقها حفاظًا عـلى المظهر الاجتماعـي، ومن أجل أن ينشـأ طفلاه بين أبوين غير مطلقين، لكما أن تتخيلا قدر الثورة التـي قابلنـي بهـا معاذ عـبر الهاتف عندمـا أخبرته بذلـك، فكيف الحـال إن علـم بالحقيقة إذًا؟ ثار يومها كثـيرًا وأرعد وأزبد، أعلن

رفضه للموضوع من البداية وأنه لن يتناقش معي في أي تفاصيل بخصوصه، كان صوته من شدة الانفعال تكاد تهتز له جدران الحجرة، أتتصوران ذلك؟ ولكن الأمر الغريب أن ثورته تلك لم تزدني إلا تشبثًا بنبيل أكثر فأكثر، كان معاذ يعرفه بطبيعة الحال ويذكُر أنه تقدم طالبًا يدي منذ سنوات، ساءلني في صوت مستنكر «ألم ييأس هذا النبيل من رفضنا له قديمًا؟ أما زال يتحين الفرصة ليظفر بكِ؟ ألا تبًا له» طلبت منه أن يهدأ أولًا ثم يعيد التفكير في الأمر من جديد، لانني لن أتخلى عن قراري بالارتباط بالشخص الذي يريده قلبي، وعدني بأن يفعل بعد أن استحلفته برحمة والدي وبرحمتكِ أنت أيضًا أمي، أذكر أنني شعرت ببعض الأمل وقتها؛ فأسرعت لأخبر إيمان بذلك، فما كان منها إلا أن أطرقت وتجهمت بينما صوتها يستنكر ما حدث «هل أصبحتِ تكذبين الآن سارة؟ ومن أجل ماذا؟ أمن أجل زواجكِ من رجل متزوج بالفعل وله أسرة وأطفال صغار؟ ما عهدتك ميكافيلية من قبل.. فمنذ متى والغاية لديكِ تبرر الوسيلة؟» أخبرتها أني لا أكذب ولكني أخفي جزءًا من الحقيقة لأن إظهارها كاملة ربما يتسبب في وأد قلبي من جديد، أنبأتني بأن أول الغيث قطرة وبأن الحب قد أعمى عينيَ وجعلني أُغيب عقلي، وبأنها هي ورامي غير راضيَين عما ننساق وراءه أنا ونبيل.. خمسة أيام مرت وأنا يتآكلني

الخوف، انتظر رد معاذ في قلق شـديد، حتى وجدته يتصل بي وهو أشد ثورة من المرة السابقة، لـم أتبين كلماته في بداية الأمر.. سألته أن يهـدأ حتـى أسـتوعب ما يقـول ففاجأني صوته في هياج شـديد «منـذ متـى تعلمتِ الكذب عليَّ سـارة؟ أم أن نبيل هو الذي يخفي عنـكِ حقيقة وضعه الزوجي؟ كنتُ قد أوصيتُ صديقًا لي بجهاز أمنـي أن يتحـرى عنـه بعد آخر حديـث بيننا، حتى أتـاني رده هذا الصباح، إنه ما زال يقيم مع زوجته وطفليه بحي الظاهر، أجيبيني سـارة.. أكنـتِ تعلمـين بالأمر؟ أم أنـه قد خدعكِ كـي يصل إلى هدفه الذي أراده منذ زمن؟» لـم أفلح في إقناعه في بادئ الأمر، إن إخفائي لبعض الحقائق عنه أضعف موقفي أمامه إلى درجة كبيرة، إن معاذ ليس شـقيقي الأكبر فقـط ولكنه كذلك أول صديق لي في هذا الوجود، أحبه بشدة حقًا، ولكني كذلك أحب نبيل إلى درجة الجنـون، تملك العند من معاذ لأيام طويلـة قاطعني خلالها، عزف عـن الـرد على اتصـالاتي، أجبر مُنـى زوجته على أن تحـذو حذوه، كدت أضعف وقتها وأنصاع لرأيه كما اعتدت أن أفعل دائمًا خلال حياتي، ولكن صوت نبيل عندما كان يحدثني، نظرات العشق التي يلقـاني بها، عينـاه وهما تعداننـي بجنة صغيرة من الأحـلام الملونة سـنصنعها سـويًّا هنا على الأرض، لفتاته.. سـكناته.. ابتسـاماته، كل مفردات عالمه التي أعشـقها، كانت تردني مناضلة تـدافع عن

حقها المسلوب منها، كنتُ ألقاه فيعيد تشكيل أبجدياتي، ينظم برقته عبث الفوضى بداخلي، تذكرني عيناه بسنوات الشتات التي فرقتنا؛ فأرغب في تعويضه عن كل تلك اللحظات، ينبؤني أنها حربنا الخاصة، وأنه لابد لنا من الدفاع عن أرضنا التي هي قلبانا معًا بكل ما أوتينا من قوة، إنها الحرب إذًا قد فُرضت علينا سويًّا؛ لذا وجب عليَ أن أقوم بدوري لأستحق أن أعبر نهر الجحيم الذي عَلِقت به لسنوات لأصل إلى جنتي الخاصة أنا ونبيل، وقد كان... فقد قمت بدوري على أكمل وجه، استبسلت في الدفاع عما يريده قلبي، أيام مرت كالدهور بينما معاذ لا يزال ثابتًا على موقفه، ثم تمكن من الوصول إلى رقم نبيل وحدثه لعدة مرات، بدأت بثورة ثم أخذ الأمر يهدأ تدريجيًا، حتى رضخ أخيرًا لرغبتي، أعلن أنه غير راضٍ عما أقوم به وأن ما جعله يوافقني على توسلاتي في النهاية أنه علم بأن نبيل لا غبار عليه أخلاقيًا، كما أنه لمس خلال حديثهما معًا صدق عاطفة نبيل تجاهي ورغبته في إسعادي، فاشترط عليه أن يكون إخفاء زواجنا أمرًا مؤقتًا، وأن عليه أن يعلن عنه بعد فترة قصيرة.. فوعده نبيل بذلك وأخبره بأن هذا هو ما كنا قد انتويناه بالفعل، وافق معاذ على مضض ولكنه عاد يكرر عليَ أن كل ذلك لا يكفي لإنجاح حياتي الزوجية، وأن ظروف نبيل العائلية كفيلة بإفساد حياتي معه بعد حين، وأنه إنما يفعل ذلك حتى لا أندفع

وأتـزوج دون موافقتـه فيعيرني نبيل بهـا بعد ذلك، لـم أناقشـه في وجهـة نظره هذه، يكفيني أنه وافق أخيرًا، كانت موافقته هي أهم لبنة في حائط أماني النفسي، وقد جئتكما اليوم لأعلمكما أن زواجي من نبيل سيكون بعد ثلاثة أيام، لا تدريان قدر الفرحة التي تسكن قلبـي، حقًا هي فرحـة منقوصة بعض الشيء، فأنا أشـعر أن إيمان غـير راضيـة تمامًا عـما أفعلـه، كذلك موقـف نور عندمـا أخبرتها بالأمر، ناهيكما عن وائل وما فعله بابتعاده تمامًا عن المشهد منذ أن أخبرته نور، أعلم سبب ما يعانيه وأعذره في ذلك ولكن إحساسي بأنني السـبب في نزف قلبه يـكاد أن يقتلني في بعض الأحيان، لـم يعـد يتصل بي بالمـرة، حتى نور انتبذت منـي مكانًا قصيًا، صحيح أنهـا ترد على مكالماتي بـأدب جم كعادتها، ولكن شـيئًا ما قد كُسِر بيننـا ولا سـبيل إلى إصلاحـه عـما قريـب، كل ما أرجـوه أن يهدأ الجميع ويقنعوا بصحة قراري عندما يرونني سـعيدة هانئة، أشعر أن روحيكـما معي، أرى بسـمة الفرح تعتلي وجهـكِ أمي، ونظرة السـعادة التـي تتراقص داخـل عينيكِ خالتـي بالرغم مـن قلقكِ على وائل، أستشـعر كل ذلـك وأفتقد وجودكما معـي، ما يعزيني هو إحسـاسي بأنكما كنتما ستتمنيان لي السـعادة والهناء، سأتركما الآن.. ولكنـي في الزيارة القادمة لن آتيكما وحدي، سـأحضر نبيل معي وستريان أنه يستحق كل ما حدث طوال الفترة السابقة.

نهضت أخيرًا بعدما أتمت ما أرادت قوله لهما، خطت بقدميها إلى الخارج في ثقة لم تعتد عليها، أغلقت البوابة خلفها ثم استقلت السيارة عائدة نحو الطريق الذي اختاره قلبها وأصر عليه.. تُرى هل أصابت الاختيار؟ لن نعلم... حتى نعلم.

* * * * *

وأخيرًا.. تم عقد القران بمنزل والدي سارة ومعاذ، لم يحضر أي من أقارب نبيل أو معارفه كما تم الاتفاق بينهم، وقفت إيمان تنظر في سعادة حنونة إلى صديقة عمرها بينما تغمرها مشاعر الرضا والفرح، كانت قد قرأت أن الحب يضيء قلب المرأة من الداخل فينعكس سناه على وجهها فيشرق، لقد صدقت هذا القول الآن عند رؤيتها لهالة النور التي تحيط بوجه سارة وهي تقف إلى جوار زوجها نبيل، التقت أعينهما للحظات، فعَلت السعادة وجهيهما سويًا، أشرق وجه سارة عن ابتسامة رقص لها قلب إيمان طربًا، أسرعت إليها واحتضنتها بفرح وهمست لها: مبارك حبيبتي.. أتمنى أن أراكِ سعيدة هكذا دائمًا.

ضحكت سارة في جذل قائلة: إنها المرة الثالثة التي تهنئينني فيها إيمان، أتُرى فرحتكِ بي قد أفقدتكِ بعضًا من الذاكرة؟

تبادلتا الضحكات، ثم التفتت إيمان جهة نبيل قائلة: لن أوصيك عليها.

— أتوصينني على نفسي؟ لا تقلقي إيمان، إنها بقلبي.

ابتسمت لهما وهنأتهما من جديد واستأذنت، بينما عيناها تبحثان عن زوجها رامي، كان هنا منذ قليل بصحبة معاذ، اتجهت ناحية الشرفة علها تجده هناك، وبينما تدلف إليها اصطدمت بوائل خارجًا منها، اعتذر لها محاولًا إخفاء ما يعتليه من ضيق، وقبل أن يستأذنها في الانصراف عاجلته قائلة: أتعلم أنك شخص رائع حقًا؟

— أشكركِ كثيرًا إيمان.. ولكن ما الذي دعاكِ إلى قول ذلك الآن؟

— عشرتي الطويلة معك أنت ونور بحكم صداقتي لسارة.

— كلامكِ هذا لا يعد إجابة على سؤالي.

— لا أدري حقًا.. ولكني شعرت برغبة في أن أخبرك بهذا الآن.

ابتسم لها وصمتا للحظات قبل أن تقول إيمان: أتعلم؟ كان عليك أن تنتهز الفرصة وتخبرها بما تشعر به.

صُدم من قولها هذا ولم يستطع الرد فأكملت: أعلم أنك تحبها منذ زمن، ولكم تمنيتُ أن تكون أنت مكان نبيل في هذه اللحظة، ولكنها إرادة الله.

هز رأسه مؤَمنًا على كلامها ثم جنح بالحديث عن معاذ ليغير موضوع حوارهما قائلًا: هل سيمكث معاذ هنا طويلًا؟

— لا.. سيسافر بعد غدٍ صباحًا، أنت تعلم أن موعد إجازته السنوية لـم يحـن بعد، لقد اسـتطاع تدبير أموره هناك لمـدة ثلاثة أيام فقط ليتمكن من الحضور، لـم يشـأ أن يترك سـارة تقوم بتزويج نفسها بنفسها، كما أن سـارة ونبيل كانا يتعجلان إتمام الزواج ولـم يرغبا في تأجيل الأمر حتى يحين موعد إجازته بعد ثلاثة أشهر.

أحست أنه قد جانبها التوفيق في آخر جملة، فصمتت قليلًا ثم سألته: أين هي نور؟

— أظنها مع والدتكِ وابنتيكِ بحجرة المعيشة بالداخل.

— وكيف هي أحوالك المهنية؟

— بخـير.. سأسـافر في غضـون الأيـام القادمـة إلى السـعودية، أحد الأصدقـاء سـاعدني في الحصول عـلى عقد عمل مناسـب بإحدى الشركات هناك.

— وفقك الله دائمًا، هذا خبر رائع ولكنه جديد على مسامعي، أظن أن سارة لـم تعلم بذلك الأمر بعد.

— هـي حقًـا لـم تعلم حتـى الآن، لا أحـد يعلم غير نور شـقيقتي، سأسافر أنا أولًا ثم ستلحق بي نور بعد ذلك إلى هناك، علّنا نصنع لنا حياة بعيدًا عن كل هذا الهراء حولنا.

— رغم أننا سنفتقدك كثيرًا هنا، لكني أتمنى لك التوفيق من كل قلبي.

— أشكرك كثيرًا إيمان، أستأذنكِ في أن أذهب وأحضر نور لننصرف.

— تفضل.

خطا خطوتين مبتعدًا ثم عاد أدراجه نحوها، نظر إلى عينيها في رجاء قائلًا: أرجو أن تهتمي بسارة في غيابنا.

— لا تقلق عليها وائل، يمكنك أن تسافر وأنت مطمئن.

— أثق بذلك تمامًا.

سار مبتعدًا عنها بينما عيناها ما زالتا تتبعانه، ولسان حالها يقول «كم أشفق عليك، لقد أضعتها مرة أخرى وإلى الأبد.. ألا ليتك تعجلت الحديث إليها، كنتُ سأطمئن عليها أكثر لو كانت معك أنت.. ولكنه قدر الله».

حولت بصرها جهة سارة التي تقف بجانب نبيل، تأملت حالهما وهما ممسكان بيد بعضهما البعض، يتهامسان في وله وكأنهما غائبان تمامًا عن الوجود.. لم تملُك إلا أن تبتسم في رجاء بينما ذلك السؤال يتعاظم داخلها.. تُرى هل تحصلين على جنتكِ التي فتشتِ عنها طويلًا سارة؟ لم تحصل على إجابة بطبيعة الحال، ولكنها كانت تأمل أن تأتي الإجابة كما يتمناها قلبها.

* * * * *

أربعة أيام مرت كالحلم، اختطفها نبيل وسارة من بين مخالب سنوات العمر، حملهما الحب خلالها فوق جناحيه، حلقا هناك حيث تلك النجمات البعيدة، خلف مجرات أكوان الهوى السرمدي، كان نبيل قد تمكن من إقناع ليلى زوجته بحاجته إلى السفر نظرًا لظروف خاصة بصفقة كبيرة يمكنها أن ترتفع بوضع مكتب التوريدات الخاص به هو ورامي إلى عنان السماء.. سافر هو وسارة إلى الغردقة، وهناك أحست سارة ولأول مرة بأن نبيل لها وحدها، حقًا إنه حبيبها منذ سنوات طوال، ولكنه الآن أصبح زوجها كذلك.. فيالحظها السعيد، ها هما عائدان اليوم إلى بيت والدي سارة، حيث اتفقا على أن يكون هذا هو بيت الزوجية المؤقت إلى أن يتمكن نبيل من تأسيس بيت خاص بسارة وحدها، وصلا أسفل البناية ونزلا من سيارة الأجرة التي استقلاها من المطار، ابتسم لها نبيل بينما ينقد السائق أجره، اتجها نحو المدخل متشابكي الأيدي.. ثم استقلا المصعد الكهربي بينما هما يتهامسان ويتذكران تلك اللحظات التي مرت عليهما هناك في الغردقة، وصل بهما المصعد سريعًا إلى طابقهما المنشود، انتبه نبيل لذلك، عجبًا.. أوصلا بتلك السرعة؟ يومض بعقله موقف مماثل عندما كان يستقل مصعدًا آخر بعمارة رامي يوم الحفل، كان يمني نفسه برؤية سارة هناك، وقتها استغرق المصعد دهورًا ليصل، حقًا.. ما أعجب مرور نهر الزمن بأرواحنا! وكأنه يستوقف لحظات عمرنا وقتما يريد، ويمررها

مر البرق حينما يحلو له، ابتسم عندما وصل بتفكيره لتلك الخاطرة، جذبها وخرجا سويًّا من المصعد، وعند باب الشقة التفت إليها قائلًا: لتنتظر أميرتي هنا قليلًا.

أخرج المفتاح وأداره بثقب الباب ثم حملها بين ذراعيه في حنان، تعلقت برقبته في فرحة، خطا بها نحو الداخل ودون أن يلتفت أغلق الباب بإحدى قدميه، قبلها برقة قائلًا: أنرتِ جنتكِ أميرتي الجميلة.

أغمضت عينيها في انتشاء وتنفست بعمق وكأنها تتشرب كلماته، أنزلها من بين ذراعيه بينما يداها ما زالتا متعلقتين برقبته، أدناها منه أكثر؛ فدنت.. غديا متلاصقين، احتضنها طويلًا فغاصت بصدره، أبعد رأسه قليلًا إلى الخلف ليتمكن من احتضان قسماتها بعينيه، بادلته عيناها احتضانًا باحتضان، ثم أغمضتهما وقبلته، ذابا معًا في قبلة مُسكرة، تلاشى الوجود إلا منهما فقط، ها هو الزمن يلعب معهما لعبته المفضلة من جديد، يرتحل بهما صوب السماء السابعة، إنهما هناك الآن، تظلهما سحابات العشق، ها هو القمر يطالهما بأجنحته الفضية، وتلك النجمة ما لها تشدو لهما أنغامًا سحرية؟ عجبًا.. أيمكن لقُبلة واحدة ان تفعل بنا كل ذلك؟ غريب هو ذلك الكائن الأسطوري المدعو حبًا، ولكن.. مهلًا، إن بعض النسائم تجتذبهما لأسفل، ها هما قد وصلا حد السماء الأولى، تتجاذبهما أنسام

جديـدة نحو الأرض، أتُراهما يعودان إلى عالم الواقع؟ يبدو ذلك.. فها هي أقدامهـما تلامـس أرضية المنزل برفـق، يفتحان أعينهما في هيـام، تهمس له سـارة «أحبك»، يقبلها لمرة أخرى هامسًا «وأنا أعشقكِ حبيبتي» تبتسم له في وله، يقبل جبينها في حب بينما شفتاه تهمسان لها: لابد لي من الانصراف الآن حبيبتي للذهاب إلى المكتب.

تجيبه في اعتراضٍ مدلل: ستتركني إذًا.

— لـو كان الأمـر بيـدي لمكثت ها هنا إلى جـوارِكِ أبـد الدهر، لكني مضطر إلى الرحيل كما تعلمين.

قبلته من جديد قائلة: أعلم حبيبي.. ولكني سأشتاق إليك كثيرًا.

— لن أتأخر عليكِ حبيبتي.

— وأنا سأنتظرك منذ الآن، لتصحبك السلامة حبيبي.

ودعتـه حتى باب المنزل، ابتسـمت لـه في حب وأغلقـت الباب، ثم دارت حول نفسها في هيام قائلة: يا الله! ما أجمل هذا الحب!

الفصل الثاني عشر

داعبت نسمات الصباح الأولى وجنتيّ سارة في خجل، كانت لا تزال مستيقظة تجلس بالشرفة ولم تنم منذ الأمس، فما أطول ساعات الليل عندما تحتويها الوحدة ويسيطر عليها الملل! عالم من الرتابة يحيط بها ليلًا، يجثم بحضوره الثقيل فوق أنفاسها المرهفة، تعتصرها أياديه في إصرار رتيب، أصبحت تمقت ساعات الليل هذه، وكيف لا تمقتها وتلك الوحدة تسيطر على نواحيها؟ فلا تنجب دقائقها فرحًا، ولا يزهر انتظار ثوانيها انفراجًا، تأتيها الوحدة ليلًا كزائر لحوح مترقب، فتمكث طويلًا دون دعوة، بالله كيف لتلك الوحدة أن تفعل بها ذلك؟ ألا تستحي؟ ولكن.. ربما كانت لا تعلم أن سارة لا ترغب في تواجدها، ربما اعتقدت أنها تأنس بها وتترقب رتابتها، فلو أن سارة أظهرت لها بعض التأفف، فلربما انتبهت قليلًا وخففت من نوبات حضورها، ولما كانت أحضرت معها رفيقها الملل.. يجولان معًا قرب محيط منطقة ذكريات سارة، يعبثان سويًّا ببنايات الفرح؛ فتتوارى بشاراته خلف الأفق، يطلقان العنان لطائر

الغـيرة؛ ليحلق في سـموات اتزانهـا، يفعلان ما يفعلان، ثـم يرتحلان عندما تعتلي الشمس كبد السماء، ها هما الآن يجمعان أغراضهما استعدادًا للرحيل، تغض سارة طرفها عنهما كي لا يسألاها البقاء لنزف ساعات أخرى، ترنو هي بنظرها نحو السـاعة المعلقة بالداخل، إنها تقترب من السابعة صباحًا، تتفقد شاشـة هاتفها الجوال في أمل، فلربما أرسـل إليها رسالة نصية يخبرها فيها أنه قد اسـتيقظ من نومه كما اعتاد أن يفعل منذ شـهور، فلا تجد إشعارًا ينبـيء بذلك، لا بـأس.. ربما هو لـم يسـتيقظ بعد، ربما عـاد متأخرًا أمس ولـم يحـظ بفترة نـوم كافية، ولكن.. لِـمَ لـم يحظ بفترة نـوم كافية؟ أتُراه قـضى بعـض الوقت معها؟ أتُرى جلسـا يتسـامران ليلًا؟ أيعقـل أن يكون بـين أحضانها الآن؟ يـا الله! إن الأفكار تكاد تتآكلها، تحـاول إبعادها فتأبى الرحيل، تزجرها فلا ترتدع، ما بالها أصبحت هكذا؟ كيف تناست أن ليلى زوجتـه؟ وأنـه يحق لهـا أن تكون بين أحضانـه الآن، بـل إن كل الحق معها هـي، بينما سـارة لا يحق لها مجـرد إبداء الضيق، لقد ارتضـت هذا الأمر منذ البدايـة، حتـى وإن كانت تجهل تبعاته، فهـي في أرض الملعب الآن وتسري عليها قواعد اللعبة كاملة، تفقدت هاتفها لمرة أخرى، لن يتصل الآن.. إنها تعلم ذلك، لقد انقضى زمن الرسائل الصباحية التي يخبرها فيها أنه استيقظ لتوه، وأنه يشتاق إليها، وأنها قاسمته الحلم طوال نومه، انقضى زمن اتصاله وهو في طريقه إلى العمل ليستمرا في الحديث حتى يصل إلى مكتبه، فيتركها ليتابع سير العمل ثم يعود ليختطف اتصالًا جديدًا كلما سنحت له الفرصة،

كان دائمًا ما يخلق لها وقتًا وسط ازدحام يومه، كانت على قائمة أولوياته، فما بـال دورهـا قد تراجع الآن؟ أتراه الملل؟ أم أنه قد اعتاد وجودها في حياته؟ أم أن بريق البدايات قد خبا وانطفأ نوره؟ أم أنه حقًا مضغوط منشـغل كما يقول؟ ربما كان انشـغاله بالعمل هو ما جعله مؤخرًا على غير عاداته معها، فلتكـن زوجة عاقلـة إذًا ولتلتمس له العذر في تغـيره، يكفيها أنها تعلم أنها تحتل الجانب الأكبر من قلبه.. لتحاول تزجية الوقت الآن حتى يحين موعد اتصالـه الجديـد، حقًا هي لا تعلم متـى يحين هذا الموعـد، ولكن لا بأس.. لتنتظـر لبضع سـاعات أخرى، فلا ضير من ذلك أبـدًا، أوليس هو زوجها وحـب العمر ومن أجله شُرعت الأعذار؟ لتصمت إذًا الآن ولتتقن دورها كزوجة محبة ولتنتظر اتصاله، وما أطوله من انتظار!

* * * * *

دلف نبيل إلى الشقة في هدوء شديد، لـم يجد سارة بالردهة، تسلل في خفة إلى الداخل واتجه حيث حجرة المعيشة في حذر؛ فوجدها جالسة أمام التلفاز توليه ظهرها وفي يدها كتاب، يبدو من جلسـتها أنها شاردة لا تقرأ ولا تتابـع ما يُعرض أمامها على الشاشـة، اقـترب منها في هدوء ثم فاجأها بأن طبع قبلة على وجنتها قائلًا: اشتقت إليكِ كثيرًا حبيبتي.

انتبهت سارة واستدارت إليه، واحتضنته في شوق قائلة: لقد اشتقت إليك أكثر، لِـمَ تأخرت هكذا؟

— إنه ضغط العمل حبيبتي، فلتسامحيننني على هذا التأخير.

أبعدت نفسها عنه قائلة في دلال: لن أسامحك حتى تعدني بعدم تكرار هذا الأمر مرة أخرى.

— أعدكِ حبيبتي بأني لن أتأخر عليكِ بعد الآن، ولكن هل تناولتِ غداءك وحدكِ أم أنكِ ما زلتِ تنتظرينني؟

— كان يجب أن أتناول غدائي بدونك عقابًا لك، ولكن قلبي لم يطاوعني على فعل ذلك.

— حسنًا.. هيا لنتناول غداءنا سويًا، فأنا أتضور جوعًا.

— هلا استبدلت ملابسك ريثما أجهز المائدة؟

بدا عليه الارتباك قليلًا وتسمر للحظات، ثم تمالك نفسه سريعًا واقترب منها مُقبلًا جبهتها وهو يقول: مع الأسف حبيبتي.. لن أستطيع المكوث طويلًا اليوم، فأنا مرتبط بموعد عمل مهم لم أستطع تأجيله، سأتناول الغداء سريعًا ثم سأذهب إلى موعدي.

صمتت سارة وهزت رأسها في تفهم مصطنع، كانت قد لاحظت ارتباكه الذي لم ينجح في إخفائه، ذهبت لتجهيز المائدة ثم نادته عندما انتهت، أقبل عليها مبتسمًا وجلس على رأس المائدة وبدأ في تناول الطعام بينما هي شاردة لا تأكل، انبته هو لذلك فأمسك يدها وقبلها مثنيًا

عـلى مهارتهـا في إعداد الطعـام، نظرت له في لوم قائلـة: أتدرك أنك لـم تأت منذ ثلاثة أيام كاملة؟

— أعلم حبيبتي ولكنكِ تعرفين مشاغلي هذه الأيام، وأنني...

قاطعتـه قائلـة في عتاب: صرتَ كثير الانشـغال هذه الفـترة، لا تأتي إلى المنـزل إلا كل بضعة أيام فقط، لتمكث قليلًا ثم ترحل، وقبل الرحيل تعدني بأنك ستعوضني في المرة القادمة، ولكنك لا تفي بوعدك هذا أبدًا.

— أنـتِ تتحدثـين هكـذا وكأني أهملكِ عـن عمد، أنـا لا أقضي وقتي بعيدًا عنكِ في اللهو إن كنتِ تدركين ذلك.

— ليتـك أنـت الـذي تـدرك أني أجلـس هـا هنـا كل يـوم في انتظار عودتـك، لا أفعل شـيئًا سـوى الانتظـار، وأني أرتـب يومي وفق أولوياتك أنت، كنتَ في البداية تأتيني يوميًا لمدة سـاعتين أو ثلاث ساعات.. وكان ذلك يكفيني، ولكنه لـم يمض وقت طويل حتى بـدأتَ تُباعـد بين زياراتك تدريجيًا؛ فأصبحـت تأتي لمرة واحدة أو مرتين في الأسبوع على الأكثر.

أمسـك يدهـا قائـلًا في خفـوت: لقـد اتفقنا عـلى ذلك منـذ البداية حبيبتـي، وأنـتِ كنـتِ تتفهمـين ذلك، أنا مـا نقضت عهـدي معكِ قط ولكنها ضغوط العمل قد زادت عليَ في الفترة السـابقة، صدقيني حبيبتي

أنا أتحين الفرص لأراكِ، ولو كان الأمر بيدي لمكثت ها هنا بين يديكِ ولما رحلت عنكِ أبدًا.

— وأنـا أتفهـم موقفك جيـدًا حبيبي، ولـم أنس اتفاقنـا معًا، ولكن يبدو أنك قد نسيت ذلك الوعد الذي قطعته على نفسك أمام معاذ قبـل زواجنـا، ألم يجل بخاطرك قط أنه ما فتىء يسـألني عنه كثيرًا؟ ليـس معنـى أنني لا أخـبرك بذلك أنه قد نسي وعدك لـه، أنا أدرك صعوبـة موقفك جيدًا، ولكني أريدك أنت الآخر أن تدرك صعوبة موقفـي أمام معاذ وإيمان وأمام الجميع، ألم تفكر ولو لمرة واحدة أنه يحـق لي الخروج معك علانية أمام الناس؟ إننا لـم نخرج سـويًّا إلا بضـع مرات فقط، وكنا نحاول التخفي وقتها خشـية أن يرانا أحد معـارف زوجتك فيخبرهـا.. صمتت للحظات ثـم أردفت: ليس معنى قولي هذا أنني أتنصل من اتفاقي معك، ولكني أريد أن أشعر أني زوجتـك حقًا، أريـد أن أتأبط ذراعك أمام الجميع دون خوف، أريـد أن أسـتقيظ من نومي لأجدك بجانبـي.. حتى وإن كان ذلك ليـوم واحد فقـط أو ليومين على الأكثر من كل أسـبوع، أرغب في أن أتنفـس ذات الهواء الذي تتنفسـه، أن أغسـل ملابسـك بنفسي، أن نجلس سـويًّا ليلًا لنشـاهد معًا آخر مباراة كـرة قدم في الدوري المـصري، أن نتشـاجر حول هـدف الأهلي الأخير وهـل هو هدف

صحيح أم مشكوك بأمره؟ أريد حياة كاملة معك كما وعدتني، هل تشعر بما يدور بداخلي؟ أيصلك ما أريد قوله؟ هز رأسه لها متفهمًا فأكملت: لا تفهم من كلامي أني أتعجلك الأمر، ولكن.. لتضعني نصب عينيك قليلًا فقط.

نظر في عينيها طويلًا ثم نهض مقتربًا منها، أمسك وجهها بين يديه قائلًا: أعدكِ حبيبتي أن هذا الأمر لن يتأخر كثيرًا، ولكن فقط امنحيني الوقت لأتخير الموعد المناسب لذلك.

هزت رأسها علامة الموافقة، فأنهضها محتضنًا إياها قائلًا: ليتكِ تدركين أنكِ أجمل ما حدث لي في هذا الوجود، فبالله لا تعكري صفو حياتنا بتلك المناقشات، كل ما أرجوه منكِ هو أن تثقي بحبي لكِ.

داخَلها إحساس خفي بأنه يتهرب من تنفيذ وعده لها، أو أنه يرغب في تأجيله طويلًا، عقلها ينبؤها بذلك، ولكن قلبها يرغب في تصديقه، زاد من احتضانه لها؛ فغاصت بين أحضانه مغمضة عينيها عن تخوفات عقلها، بينما قلبها يردد في وجل.. ألا ليته يصدُق.

* * * * *

— هل تعتقدين أنني لا أشعر بكِ لمجرد أنكِ تكتمين ما يدور بداخلكِ عني؟

امتلأت عينا سارة بالدموع، وأشاحت بوجهها بعيدًا عن إيمان، لم تستطع الكلام فصمتت لبعض الوقت تحاول تمالك أنفاسها، ربتت إيمان على يدها قائلة: حسنًا.. لن أضغط عليكِ أكثر من ذلك لتتحدثي.

— أنا أريد التحدث إليكِ منذ وقت طويل للغاية، ولكني كنت أمنع نفسي عن ذلك.

— منذ دخل نبيل حياتكِ مرة أخرى وأنتِ تمنعين نفسكِ عن الكثير من الأشياء.

— ليس الأمر كما تعتقدين.. ولكني فقط لم أكن لأتخيل أنه سيأتي ذلك اليوم الذي أشكو فيه نبيل لأي شخص أيًّا كان، حتي لو كان ذلك الشخص هو أنتِ، كنتُ لا أرغب في تضخيم الأمور، وكنتُ ألتمس له الأعذار في كل مرة، ولكني حقًا ما عدتُ قادرة على الكتمان لأكثر من ذلك.

احتضنتها إيمان قائلة: لقد أتيت إليكِ اليوم حبيبتي وأنا عازمة على معرفة ما بكِ؟ أنت تبتعدين عن الجميع منذ ما يقرب من الشهرين، كلما تحدثتُ معكِ تتهربين، وكلما طلبتِ منكِ أن نخرج سويًّا تختلقين الأعذار لعدم الخروج، كنتُ أحاول إقناع نفسي بأني واهمة وبأنكِ بخير حال، ولكن زعمي بأنكِ سعيدة هانئة وبأني مقتنعة بذلك، أصبح كقطعة خبز كبيرة الحجم يصعب عليَ ابتلاعها.

أجهشت سارة بالبكاء؛ فتركتها إيمان تفرغ انفعالاتها لبعض الوقت حتى هدأت قليلًا، ثم بدأت في الكلام ..

— أدرك أنكِ ستتفهمينني جيدًا، وبأنني لن أحتاج إلى تبرير أحاسيسي لكِ.

— تحدثي حبيبتي وثقي بأني سأتفهمكِ تمامًا، أخرجي ما بجعبتكِ هكذا دون ترتيب.

— لا أعلم من أين أبدأ إيمان.. ولكني حقًا لم أعد أستطيع احتمال كل تلك الأحداث، إن نبيل الذي نعرفه الآن ليس هو نبيل الذي أحببته وتزوجته واخترت أن أُضحي من أجله بالكثير من الأشياء.. قبلتُ أن يكون زواجنا غير معلن لعائلته وزوجته في بادئ الأمر حتى يتدبر أموره بعد حين، ولكنه لا يزال يختلق الحجج والأعذار ليؤجل ما وعدني به، حتى كأني أشعر بأنه لا يريد إعلان زواجه مني أبدًا، أنا أعلم أني زوجة ثانية، وأن ليلى وطفليه لهم كل الحقوق عليه ولهم الأولوية في حياته، ولكن إلى متى سيظل الوضع قائمًا هكذا، فأنا أيضًا زوجته.. ولي عليه بعض الحقوق إن لم يكن لي كل الحق تمامًا كليلى، أنا أتعذب كثيرًا إيمان.. أتعلمين قسوة أن تشعري بأن زوجكِ يخفيكِ عن الأنظار؟ أتدركين معنى أن ترغبي في أن يصطحبكِ زوجكِ معه لزيارة عائلته في المناسبات ككل الزوجات، ولكنك لا تستطيعين

مطالبتـه بذلـك لأنهم لا يعلمون بأمركِ على الإطلاق؟ أتشـعرين بقـدر لهفتـي عـلى أن أظهر معـه أمام الجميـع وألا أبقـى هكذا في الظـل؟ أتدركـين عمـق الألم الـذي يعتريني عندما يخـبرني أنه لن يمكـث معي طويلًا لأنـه مرتبط بموعد مهم ثـم أعلم عن طريق المصادفـة بأنـه خرج معهـا ليحتفلا سـويًّا بعيد زواجهـما أو بعيد ميلادهـا؟ كنتُ أبرر الأمـر وقتها بأنه يخفي عني ذلك حفاظًا على مشـاعري، ولكنه أصبح يكذب عليَ كما يتنفس، كيف أشرح لكِ وجـع ذلـك الخنجر الذي أشـعر به يُغـرس بقلبي عندما أسـمعه يحدثها همسًا ويناديها حبيبتي عبر الهاتف؟

صمتت قليلًا تلتقط أنفاسها الفارة، ثم قالت في خفوت: أنا أعلم أنها زوجته وأنه يحق له مناداتها هكذا، ولكنني بشر في نهاية الأمر، وهو زوجي وحبيبـي.. ورغـمًا عني أغـار عليه بشـدة، إنني أحاول ألا أشـعره بذلك أغلـب الوقت، ولكنني أحيانًا لا أسـتطيع التحكـم في نفسي فتنفلت مني بعـض الانفعالات، كان هو يتفهم ذلـك في البداية فيحتويني ويطمئنني، ولكنـه أصبح يغضب عليَ كثيرًا في الآونة الأخـيرة، بدأ يعاقبني بالابتعاد كلـما تحدثت معه عـما يقلقني، رغم علمه أني لا أسـتطيع الحياة بعيدة عنه طويـلًا، لكنه أصبـح يبتعد عني لأيـام وأيام، ويتعمد فعـل ذلك حتى لا أعود لمثل تلك الحماقات كما يطلق عليها.

زادت وتيرة انفعالاتها وعلا إيقاع نحيبها رغمًا عنها وهي تكمل: أصبح يخاصمني لأيام طويلة.. في الوقت نفسه الذي يتشاجر فيه معاذ معي بسبب تأخير إعلان زواجنا، ورغم قسوة ما يفعله نبيل معي.. فأنا أمنع معاذ عن محادثته حتى لا يغضب عليَ أكثر، كنتُ أحيانًا أتهرب من مواجهة معاذ بأن أختلق بعض المشاكل معه لأبتعد به عن الوصول بحوارنا إلى تلك النقطة، وأحيانًا أخرى كنت أعنفه قائلة بأن ذلك شأني الخاص وبأنني راضية عن حياتي هكذا، ثم أعود لأمنعه عن مفاتحة نبيل في الأمر من جديد بحجة أن ذلك من شأنه أن يخرب عليَ حياتي، حتى وصل الأمر بمعاذ لأن يقاطعني كلية في الفترة الأخيرة.

— ولِمَ تتحملين كل ذلك في صمت؟ لِمَ لا تسمحين لمعاذ بمحادثته ومطالبته بتنفيذ وعده الذي قطعه قبل زواجكما؟

— لأني أحبه كثيرًا إيمان، ولا أرغب في إغضابه أو في جرح مشاعره.. لا قِبل لي بتحمل تبعات حديثه مع معاذ، ولا أستطيع تكملة حياتي دونه ولو للحظة واحدة، ما زال الأمل يحدوني في أنه سيعلن عن زواجنا بنفسه في يوم ما دون ضغوط من أحد.

— في يوم ما! أشعر أن هذا اليوم لن يأتي أبدًا سارة.

— لِمَ تقولين ذلك إيمان؟

— لِـمَ أقـول ذلـك؟ أتذكرين كم مرة سـألتكِ فيهاعن سـبب تأخر الحمل حتى الآن وأنتِ تخبرينني بأن الله لـم يأذن بعد؟ كنتُ أعلم وقتها أنه هو من يرغب في تأجيل الحمل ولكنكِ تخفين ذلك عني.

— أنـتِ تعلمين أننـي أتحرق شـوقًا لأن أصبح أمًّا مـن جديد، ولأن أحمـل طفـلًا له بين أحشـائي، ولكننا بطبيعة الحال لن نسـتطيع أن نُقدِم على تلك الخطوة إلا بعد إعلان زواجنا.

— أنـتِ تغالطـين نفسـكِ إذًا.. أنت توقنين جيدًا أنـه يختلق الأعذار كـي لا يفعل ذلـك ولكنك تخشـين الاعتراف فقط، لقـد مر على زواجكـما سـنة كاملة وثمانية أشـهر.. فـإلى متى سـتنتظرين أكثر من ذلك لتحسـمي معه كل تلك الأمور؟ أنت تتقدمين في العمر وفرصتـكِ في الإنجـاب تتضـاءل تدريجيًـا إن كنتِ قـد لاحظتِ ذلك الأمر.

انتحبت سـارة قائلة: رفقًا بي إيمان بالله عليكِ، إنما هي مسـألة وقت فقط، فهو يحبني كثيرًا كما تعلمين.

— كل مـا أعلمـه أني أراكِ تذبلـين أمامـي كل يـوم ولا أسـتطيع أن أمـد لكِ يد المسـاعدة، لأنـك لا تمنحينني الفرصـة لأن أفعل، ولا تمنحينها لأي أحد آخر كذلك.

كفكفت سارة دموعها قائلة: بالله كفاكِ لومًا إيمان.. لا تجلعينني أشعر بالندم على أني قد فتحتُ لكِ قلبي وأخبرتكِ بكل ما يعذبني.

— أنا لا ألومكِ حبيبتي، إنما فقط لا أرغب في أن أراكِ منكسرة القلب هكذا، أنت تهدرين حقكِ بسكوتكِ هذا، تخشين ابتعاده عنكِ الذي يُلوح به كلما فاتحتِه في أمر ما.

— صدقيني أنا فقط تائهة.. لا أدري ماذا أفعل بهذا الصدد؟

— إن كنتِ لا ترغبين في محادثته خوفًا من إغضابه، فلأقم أنا بهذا.. أو فليقم به رامي فهو صديقه المقرب.

— لا بالله عليكِ.. لا أريده أن يعلم أني قد فاتحتكِ في الأمر.

— وما الضير من ذلك حبيبتي؟ نحن صديقتان منذ الصغر وهو يدرك مدى تقاربنا من بعضنا البعض.

— بالله لا تفعلي.. امنحيني وعدًا بألا تفعلي إيمان.

— أعدكِ بذلك.. فقط إن أنت وعدتِني بمفاتحته في كل تلك الأمور، وبأنكِ لن تسكتي عن حقكِ لأكثر من ذلك.

— أعدكِ بأني سأتدبر أموري معه.. ولكن ليس الآن، لنمنحه بعض الوقت فقط، عله يفعل ذلك بنفسه.

— حسنًا سارة.. كما تريدين، لنمنحه بعض الوقت.

احتضنتها سـارة في امتنان قائلة: أشكرك إيمان.. أشكركِ على كونكِ دائمًا عند حُسن ظني.

— لكم أرجو أن يكون هو عند حُسن ظنك حبيبتي.

— لنأمل ذلك إيمان.

صمتت إيمان قليلًا ثم أردفت شاردة: حقًا، لنأمل ذلك.

الفصل الثالث عشر

أيام رتيبة تمر، أنسام حانقات، ذرات هواء تلتصق بالأجساد كطفلٍ لا يستطيع الابتعاد عن أمه، وكأن تلك الأجساد تمنحها سببًا للوجود، يا له من صيفٍ حارٍ يشكو الجميع فيه من ندرة الهواء! إنه منتصف أغسطس يُعلن عن قدومه بزهوٍ وفَخار.. تبسط أيادي الرطوبة فيه سطوتها على مختلف الأرجاء، ها هي ليلة أخرى من لياليه تجثم بثقلها فوق الصدور، بضع قطرات عرقٍ تحتشد فوق جبين سارة بخجل، إحساسها بارتفاع الحرارة يزداد باضطراد، عجبًا.. ألا يعمل ذلك المكيف؟ هي تذكر جيدًا أنها قامت بتشغيله قبل أن تخلد إلى النوم، تتقلب فوق الفراش بصعوبة وتنظر جهة المكيف المثبت هناك فوق الحائط.. إنه يعمل! فلِمَ إذًا يداهمها ذلك الشعور بأن شيئًا ما يُطبق على أنفاسها؟ شيءٌ لا تدري كنهه بالتحديد، ولكنه يتزامن مع ذلك الألم شديد الضراوة الذي نشأ فجأة من العدم، وضربها دون مقدمات كإعصارٍ عاتٍ تمامًا في منتصف منطقة

البطن، ثم أخذ في الانتشار المتمرس في بقية أنحاء بطنها، ألمٌ يعرف طريقه جيدًا وكأنه قام بذلك العمل لآلافٍ من المرات، يا الله! إنها تجاهد لالتقاط أنفاسها، وكلما همت بفعل ذلك؛ ازدادت قسوة الألم، شعور يحتويها بندرة الهواء ولا تدري ما العمل؟ نظرة خاطفة جهة ساعة الحائط هناك تنبئها أنها الثانية صباحًا، تبًا.. لن تستطيع الاتصال بنبيل الآن لتسأله العون، دائمًا هو هكذا.. لا تجده عندما تحتاجه، بل إنه غير متاحٍ لها في أغلب الأوقات.. تمامًا كشبكة هاتف تحتاج إشاراتها الخاصة إلى تقوية، إن الألم يزداد وهي هنا وحدها.. وحدها تمامًا، فإيمان هي الأخرى غير متاحة لها الآن، إنها بإحدى قرى الساحل الشمالي تقضي إجازة الصيف بصحبة رامي والفتاتين، أليس هناك من أحدٍ تستطيع اللجوء إليه؟ إن معاذ يمكث بعيدًا هناك في البحرين، فماذا عن وائل ونور إذًا؟ تذكرتْ.. إنهما في السعودية منذ ما يزيد على العامين ونصف العام، لم تشعر أنها وحدها هكذا من قبل، لا تدري ما العمل؟ ولا يسعفها عقلها بحلٍ ما؛ فهذا الألم يحكم السيطرة عليها ويشل تفكيرها تمامًا، تتحامل على نفسها لتقف، تعض على أناملها بقوة فتدميها.. تستند على الجدران بتخبط.. تجاهد للوصول إلى باب الشقة.. ترفع عينيها لأعلى وتبتهل إلى الله، تكتم تلك الآهه التي تصارع للإفلات من بين شفتيها، ها هي قد وصلت أخيرًا.. تدير المقبض بين يديها بوهن، يعتريها شعور بالغثيان.. يتراءَى لها باب الشقة المقابلة هناك وسط الغمام.. تستغرق دهورًا لتصل.. تدق

الباب بإعياء.. لا أحد يستجيب.. تدقه بإصرار.. لا أحد يستجيب، ضربات الألم تزداد ضراوة.. تتمكن أنامها من الضغط على زر الجرس.. بضع ضغطاتٍ أخرى متقطعة كانت كفيلة لتسمع بعدها وقع أقدام تسرع الخطى من الداخل، ينفتح باب الشقة أخيرًا عن بعض الخيالات، يتخلى عنها وعيها وكأنه كان ينتظر تلك اللحظة منذ زمن.. إظلام تام، ثم تسقط مغشيًا عليها.

* * * * *

عادت سارة إلى المنزل بعد عدة أيامٍ قضتها بالمشفى أجرت خلالها جراحة لاستئصال الزائدة الدودية، تمكن جارها وزوجته بالشقة المجاورة من نقلها إلى هناك بعدما وجداها مغشيًا عليها أمام باب شقتهما، تم تشخيص الحالة بسرعة واتخاذ الإجراءات اللازمة للجراحة، قطعت إيمان إجازتها وأتت مسرعة هي ورامي فور علمهما بما حدث، كذلك جاءها نبيل مسرعًا هو الآخر بمجرد أن أبلغه رامي بالأمر، فلم تشأ هي إبلاغه بنفسها.

لازمتها إيمان طوال فترة النقاهة عقب إجراء العملية، بعد أن استقدمت والدتها للاعتناء بابنتيها طوال فترة مكوثها مع سارة، كان نبيل يأتيها يوميًا للاطمئنان عليها فتقابله بجفاء، لم تتعمد أن تعامله هكذا ولكنها وجدت نفسها تقودها إلى ذلك؛ فأذعنت لها.. كان مندهشًا من طريقتها في التعامل

معـه، فهو لـم يعتد منهـا غير الحنان والاهتمام والتسـامح، ما عهدها بذلك الجمـود مـن قبل، أراد أن يختلي بها ليسـألها عن تغيراتها تلـك.. غير أنها لـم تمنحـه الفرصة لتنفيذ ما يريد، إلى أن اسـتقرت حالتها أخـيرًا وعادت إيمان إلى منزلها.

جاءهـا وقـت الظهـيرة على غـير عادته.. تسـلل في خفـة ليفاجئها كما كان يفعـل في أيـام زواجهـما الأولى، ولكن لدهشـته الكبيرة لـم يبد عليها أنهـا تفاجأت من تصرفه هذا، حاول تقبيلها فأدارت وجهها عنه في صمت، فسألها متعجبًا: ما بكِ سارة؟ منذ متى تبتعدين عني إذا ما هممت بتقبيلك؟

قابلـت تسـاؤلاته بنظـرة خاوية لا تفصح عـن شيء، فعاد يسـألها من جديد: أتشعرين بأي آلام في مكان الجرح؟

هزت رأسـها أن لا، اقترب منها من جديد وحاول احتضانها فأجفلت مبتعـدة عنـه، هنا كان قد بلغ سـيله الزُّبَى، فسـألها غاضبًا: مـا الذي يحدث هنـا بالضبط؟ أنت تعامليننـي بشـكلٍ غريبٍ منذ فـترة وكأن هناك ما غيركِ تجاهي.. فهلا أفصحتِ عما يدور داخلك؟

— لا شيء هناك.. يمكنك أن تطمئن.

— كيـف لي أن أطمئن وأنا أراكِ متغيرة هكذا؟ وكأنكِ لسِـت سـارة التي أعرفها كراحة يدي.

صمتت قليلًا تزنُ الأمور بعقلها ثم فاجأته بقولها: صدقت.. صدقت لأقصى مدى، فأنا لستُ سارة التي عرفتها من قبل، أنا سارة أخرى تختلف كلية عن تلك المرأة التي تزوجتك قبل سنتين وسبعة أشهر.

هز رأسه وكأنه يقول كنت متأكدًا من أن هناك شيئًا ما، أغمض عينيه وتنفس عميقًا ثم اقترب منها من جديد محاذرًا أن تبعده عنها، قائلًا لها في صوت حاول الإمساك بانفعالات نبراته قدر الإمكان: هلا هدأتِ قليلًا لتخبريني ما الذي ألمَّ بكِ وغيركِ هكذا؟

— أنا هادئة للغاية كما ترى.. لا يعترينى الانفعال، ولا تُمسك بي أيادي الغضب.

— حسنًا.. هل يمكنكِ إذًا إخباري بالأمر؟

— لا.. مع الأسف نبيل، فليست لدي رغبة في الكلام الآن، لذا أرجو منك احترام رغبتي تلك وتركي حتى أرى أنه يمكننا التحدث سويًّا.

إحساسان متناقضان نبتا بين جنبات روحه وقتها، إحساس عارم بالرغبة في الإمساك برأسها ودكها بين يديه.. فما عهدها عنيدة، متسلطة، متجمدة المشاعر هكذا، لازمه إحساس آخر بالقلق الشديد عليها؛ لشعوره بأنها تخفي خلف صخر ملامحها هذا أتونًا تستعر نيرانه داخلها، شَعرَ وكأنها تحترق من الداخل غير أنها تعرف تمامًا كيف تطفئ

تلـك النيران قبل أن تطـال صفحة وجهها، تغلب إحساسـه الثاني على نظـيره الأول فاقترب منها في ثبات وأمسـك كتفيها بين يديه، لـم تمنعه هـذه المـرة؛ فجذبها إليـه واحتضنها بقوة فلم تفلت نفسـها منه، مسـح بإحدى يديه على خصلات شعرها برقة، ثم أبعد رأسه عنها قليلًا لينظر في عينيهـا قائـلًا في همسٍ حنون: أعلـم جيدًا حبيبتي أن هنـاك ما يكبل قلبـكِ مـن الداخل ويحول دون نفـاذي إليكِ لأقرأ روحـكِ كما تعودنا أن نفعـل سـويًا، ولكني ما زلت أسـتطيع قراءة عينيـكِ رغم جمودهما، سـأتركِ تهدأيـن لبعـض الوقت وكلي ثقـة بأنكِ سـتعودين في أسرع وقت سارة حبيبتي التي أعرفها.

لم يبد أنها اسـتمعت لأي كلمة مما يقول، تنهد ثم قبلها على جبينها واسـتأذنها في الانـصراف فلم تعطه جوابًا، ربت عـلى وجنتها ثم تركها وخرج من الشـقة وهبط حيث السـيارة، اسـتقلها مغادرًا بينما تتشاغله الأفكار، تتعارك داخل نفسـه، يعلو صوتها حتى كاد أن يسمعها جلية، واضحـة، مدوية، ظل السـؤال الذي يحتل رأس قائمة تسـاؤلاته يتردد هنـاك بـين أودية عقله في إصرار.. تُرى ما الـذي دهاها وجعلها جامدة المشـاعر هكذا؟ لـم يشـعر بالطريق إلا عندما وصل أسـفل البناية التي يقطـن بهـا، لا يدري لِـمَ جاء هنـا ولـم يذهب إلى العمـل؟ ولا يدري لِـمَ داخلـه ذلـك الشـعور بالخوف مـن أن يفقدهـا من جديـد؟ هـز

رأســه وكأنـما ينفض عنـه هـذه الفكـرة، حدثته نفسـه في اسـتنكار أن «كيـف لـك أن تفكـر هكذا؟ إن سـارة تعشـقك ولا تسـتطيع الابتعاد عنـك ولو للحظات، لابـد أنك تتوهم تلك الأفـكار».. أغمض عينيه محاولًا اسـتجلاب بعض الطمأنينة إلى نفسه، ثم خرج من السيارة واتجه صوب مدخل البناية وهو يردد في نفسـه «سـنرى.. لأهدأ الآن، وغدًا يوم جديد».

الفصل الرابع عشر

مر أسبوعان على تماثلها التام للشفاء، كانت إيمان تأتيها خلال هذين الأسبوعين يوميًا، ونبيل كذلك كان يأتي بشكل شبه يومي ليطمئن عليها ويحاول استيضاح الأمر، فتصمت أحيانًا.. وتخبره بأنها ليست مستعدة للتحدث في الأمر أحيانًا أخرى، فكان يجمع خيبات تساؤلاته ويرحل، لم تكن ترغب في التحدث إليه إلا وهي تشعر بالثقة من قدرتها على المضي قدمًا في دروب تلك المناقشة التي دائمًا ما كانت تخرج منها منهزمة.. إذا ما دارت رحاها بينها وبين نبيل، كانت تريد التأكد من أن روحها لن تخضع لوعوده مرة أخرى، وأن قلبها لن يخذلها وينجرف وراء نداءات سرابه، ولن يتركها تواجه المجهول وحيدة ككل مرة، تناقشت كثيرًا مع إيمان فيما يداخلها، كانتا تتحدثان في الأمر لأغلب الأوقات إن لم يكن كلها، لم تعارضها إيمان ولو لمرة واحدة فيما أرادته، وعلى الرغم من شعور سارة بأن إيمان تشفق عليها من مواجهة كل تلك الآلام وحدها،

ولكنهـا عندما كانت ترى نظرات الفخـر بها في عيني إيمان لإصرارها على التغلب على انكسـاراتها.. كان ذلك يمنحها إرادة فوق الإرادة، وعزمًا يلي العزم، تكسبها نظراتها إصرارًا يعقب الإصرار، وكأنها متوالية دورات من الثقة، يد ثقة تتلقفها كي لا تسـقط، تسـلمها ليد ثانيـة تُنهضها، فتتعهدها يد ثالثة بالثبات، وهكذا دواليك.. كلما أمسـكتها يد أسـقطت عنها بعض الخيبـات، حتى اسـتطاعت إجبار طـرف خط حياتها المنحنـي من الالتقاء بالطـرف الآخر؛ ليصنعا دائرة ثقة مغلقة اسـتقر وجدانها داخلها، تأكدت من ذلك حينما اسـتيقظت متأخرة ذات صباح وأمسـكت الهاتف وكونت رقـم نبيل، وما إن أتاها صوته حتى طلبت منه القدوم إليها لأنها ترغب في التحدث إليه بأمر مهم.

* * * * *

جاءها نبيل يحمل باقة من الورود الحمراء التي تحبها، اسـتقبلته وهي مشرقـة الوجـه ترتدي ملابسًـا جديدة للخـروج كانت قـد ابتاعتها أمس وهـي بصحبة إيـمان، أقبل عليها محتضنًا إياها فلم تنفـر منه، بادرها قائلًا: حمدًا لله على عودتكِ كما كنتِ حبيبتي، لقد تملكني القلق عليكِ طوال كل تلك الفترة الماضية.

بابتسامة ثبات قالت: هلا جلست قليلًا نبيل لأحدثك فيما أرغب به.

— كـما تأمريـن حبيبتي، تحدثي فـكلي دماء صاغيـة.. أتذكرين؟ دائمًا

مـا كنـتُ أقول لـكِ ذلـك، وعندما كنـتِ تتعجبين مـن قولي هذا كنت أجيبكِ قائلًا «وإن كان الحب يرتحل بالدماء.. فلتستمع لكِ قطرات دمي عوضًا عن أذني».

— بالطبـع أذكر نبيل.. فأنا لا أنسـى كلامك مطلقًـا، ولكن دعنا من كل ذلك الآن ولتنصت إليَّ جيدًا.

أشار إليها بيده مازحًا أن تكلمي...

— قبل أن أبدأ كلامي عليك أن تعدني أولًا بأنك ستستمع إليّ دون مقاطعة.

تعجب من قولها هذا ولكنه أراد أن يريحها فقال: أعدكِ حبيبتي.

— أنـت تعلـم جيدًا قـدر حبي لك، وهـذا هو ما حـداني إلى الوقوف أمام شـقيقي الوحيد وأمـام الجميع الذين كانـوا يصرخون بنا بألا نتزوج بتلك الكيفية، ولكني صممت أذنيَ عن كل هؤلاء، أغفلتُ المنطق وأغلقتُ جميع الطرق المؤدية إليه وهرعتُ إليك أنت، كنتُ أسـتمع إليهـم فيرتجـف قلبـي هلعًا من صـدق منطقهـم، وعندما كنـتُ أحادثـك كان قلبي يعود إلى ثباته من جديـد، وعدتني بجنة خاصة بنـا نصنعها ها هنا بهذا البيت مؤقتًا لحين الانتهاء من تجهيز شـقتنا الخاصة، وعدتني بأني لن أندم على اتخـاذي لمثل هذا القرار، وعدتني بأننا سـنعوض كل تلك الأيام التي حرمنا منها جريان نهر الزمـن وجرف أرواحنا معه في هذا الجريـان، وعدتني.. ووعدتني

وأجزلت ليَ الوعود ولكنك مع الأسف لم تف بأي وعد كنت قد قطعته لي.

كان هو مذهولاً من نبرات صوتها ومن ثباتها ومن جرأتها وهي تنظر في عينيه فلا يرمش لها جفنًا، أراد مقاطعتها فأشارت له بيدها قائلة: طلبتُ منك عدم مقاطعتي في بداية الحديث، فلتسمعني جيدًا ثم سأمنحك الفرصة كاملة لتفرغ ما في جعبتك.. أتذكر نبيل ذلك الشرط الذي وضعه معاذ لإتمام زواجنا؟ حتمًا أنت تذكر أنه قد اشترط عليك ألا يبقى زواجنا طي الكتمان بعيدًا عن أعين عائلتك وزوجتك لفترة طويلة، وأنت وعدته بذلك، فهل نفذت هذا الوعد؟ بالطبع لا، سؤالي لك الآن هو.. هل ستتمكن من تنفيذه في الفترة القادمة؟

هَمَّ بإجابتها فأسرعت قائلة في عَجل: دعني أعفيك من الإجابة وأرد بدلًا منك.. أنت لن تسعى لتنفيذه أبدًا نبيل، أتدري لِمَ؟ لأنك لا تحتاج إلى تنفيذه.. فأنت مرتاح هكذا، حياتك مستقرة للغاية، لديك زوجة محبة مخلصة وطفلان رائعان، تمتلك عملك الخاص الذي توسعت فيه خلال العامين الماضيين حتى أصبحت تمتلك مكتبًا آخر للتوريدات وفي سبيلك لافتتاح المكتب الثالث، تحظى باحترام الجميع من حولك، حتى ما كان ينقصك ـ هذا إن كان هناك ما ينقصك حقًا ـ قفد تمكنت من تعويضه، تمكنت من امتلاك قلب وجسد حبك الأول، بل والأكثر من ذلك تمكنت

كذلك من امتلاك عقلها وتطويعه كيفما أردت، كنتُ أنا حلمًا قديمًا تمنيتَ تحقيقه طويلًا فدان لك.

لـم يعـد يحتمـل المزيد فصرخ بهـا قائـلًا: ما كل هـذا الهـراء الذي تتفوهين به؟

احتـدت عليه قائلـة: دعني أكمل كلامي من فضلـك، وتذكر جيدًا أنـك وعدتني بذلـك في بداية الحديث، فهلا وفيـت بوعد واحد فقط من وعودك العديدة؟

أخرسـه قولها هذا فأكملـت.. أتتهمنـي بأنني أتفوه بالهـراء؟ أتريد معرفـة ماهيـة الهـراء حقًـا؟ حسـنًا.. دعنـي أخـبرك إذًا بـأن الهـراء هـو اسـتمراري في حياتي معك بتلك الكيفية، أنـا زوجة شرعية لك بالفعل.. ولكنـي زوجة في الخفاء، تخفيني عـن أعين عائلتك وعن أعين أصدقائك ومعارفـك، تظهـر في المجتمعات العامـة بصحبة ليلى فقـط، أنا لا أعيب عليك ذلك، ولكن.. ألم تسمع عن العدل بين الزوجات من قبل؟ ألم يجل بخاطـرك أني أريـدك أن تعـدل بيننا ولو قليلًا؟ ألم تفكر بـأني قد أريد ولو جـزءًا يسـيرًا من حقوقي التي تمنعها عني؟ ألا تـدرك بأنك تمنع عني أهم حـق لي كزوجة؟ أنـت تمنعني من الإنجاب اسـتنادًا لاتفاقنا بتأجيل تلك الفكـرة حتى يصبح زواجنـا معلنًا على الملأ، ولكن بما أننا نعلم جيدًا الآن بـأن زواجنـا لن يعلن أبدًا، فبطبيعة الحال أنت لن تسـمح لي بالإقدام على

تلك الخطوة.. على الرغم من تيقنك من أني أتشوق لأن أحمل طفلًا منك بين ذراعي، أتعلم كم يبلغ عمري الآن نبيل؟ أنا في طريقي إلى الخامسة والثلاثين إن كنتَ تذكر ذلك، بمعنى أن فرصتي في الإنجاب تقل تدريجيًا بمرور الوقت.. إن لم أنجب الآن فمتى أفعل ذلك بالله عليك؟

اقترب منها محاولًا أن يجعلها تهدأ، ولكن عاصفة الانفعال كانت قد سيطرت عليها تمامًا؛ فأمطرته سحبها مزيدًا من الحقائق، زادت من سيل الحقائق قائلة في ثورة: أتعلم لِمَ لن تسمح لي بالإنجاب؟ لأنك بالفعل لديك طفل وطفلة – حفظهما الله لك – أنت لا ترغب في المزيد لأنك مكتفٍ بما لديك، لا ولن تشعر بلفح الحنين الذي يجتاح قلبي كلما رأيتُ وجه طفلٍ صغيرٍ لأنك ترفل في النعيم، لن تحترق بنار الاشتياق التي تندلع بداخلي كلما تناهت إلى مسامعي كلمة «أمي» لأن هناك برد وسلام يحطيان بقلبك ويغلفانه من الداخل، نحن في سبيلنا لإتمام سنتين وثمانية أشهر من عُمر زواجنا، ولو أنني لم أحدثك الآن في ذلك.. فثق بأننا كنا سنكملها عشر سنوات وربما أكثر من ذلك بكثير ونحن كما نحن هكذا.. ستظل تخفيني عن الأنظار وكأني وصمة عار تسعى جاهدًا لإبعادها عنك، وسأظل أنا هكذا أعاني الوحدة وأقاسي الشوق بمفردي، وأتحاشى نظرات الاستفسار في أعين المحيطين والأصدقاء والجيران وهم يرغبون في سؤالي باستمرار أين هو زوجك؟ كلت نفسي من اختلاق الأكاذيب لأبرر نوبات غيابك المستمر، أتظن أن الجيران هنا لا يعلمون بحقيقة وضعنا؟

إن كنت تظن ذلك فأنت مُغيب إذًا.. أتعلم؟ حدثتني إحدى الجارات في الأمر من قبل وأنبأتني بأن أغلب سكان بنايتنا يعلمون بأنني زوجة ثانية، وبأنك متزوج من امرأة أخرى ولديك أطفال صغار، لن أستطيع نسيان تلك الطريقة التي كانت تنظر بها إليَّ وكأنها تتهمني بأنني اختطفتك من بين أحضانهم، لم أدر بما أجيبها وقتها فلزمتُ الصمت ولم أعقب، أترى ما فعلته بي عندما أشعرتني بأن وجودي في حياتك شيء يستدعي التستر عليه؟ إن استمرارك في إخفاء الأمر هكذا أفقدني الثقة في صحة وضعنا معًا، جعلني لا أمتلك الجرأة لأقف أمام الجميع وأعلن لهم أني لستُ بخاطفة رجال كما يعتقدون، وإنما أنا فقط قد مارست حقًا شرعه الله لي، لقد تركتني أعاني ويلات نظراتهم وحدي، أقاسي الصمت بمفردي، أقاتل شوقي إليك ليل نهار، وأنا أكتم مشاعري عنك، وإذا ما تجرأتُ وألمحتُ إليك بما أقاسيه.. كنتَ تبادر إلى هجري كي لا أقدم على ارتكاب تلك الجريمة مرة أخرى، وكأنني طفلة عنيدة تحتاج إلى الشدة في التربية كي يستقيم سلوكها، أتدرك أن معاذ قد قاطعني تمامًا منذ ما يقرب من العام لأني ما فتئُت أعنفه كلما هَمَّ بمفاتحتك في أمر إعلان زواجنا؟ بالطبع أنت لا تدرك ذلك.. لأن هذا الأمر خارج دائرة اهتماماتك، لقد حملتَني الكثير من الأوجاع طوال فترة زواجنا.. أطنانًا من الهموم والانفعالات والرغبات المؤجلة والمشاكل التي أصبح ينوء بها قلبي، كلما مر الوقت؛ وجدت حبي لك يخفت، وأوشكت نيرانه على الانطفاء، ولكني كنتُ

أعيد إشعالها بأن أنفخ فيها حرارة الذكريات.. حتى جاءت تلك الليلة التي داهمتني فيها آلام الزائدة الدودية فأجهضت محاولاتي تمامًا، وما عادت هناك أنفاس داخلي قادرة على إشعال تلك الجذوة من جديد.. كانت تلك الليلة كالقشة التي قصمت ظهر بعير احتمالاتي، عانيت فيها وحدي تمامًا غير قادرة على الاستنجاد بك.. غير مسموح لي بالاتصال بك لتأتي وتسعفني.. أنت زوجي ولا أستطيع الالتجاء إليك إذا ما ألَمَّ بي مكروه، أتدرك قدر السخرية التي يخبئها هذا الأمر؟ من المفترض أنك أنت حائط الأمان الذي أحتمي خلفه من كل أهوال العالم، ولكني أدركتُ يومها أن أماني قد كُسِر وتحطم منذ هذه الليلة.

كان يستمع إليها وهو منكس الرأس، عاجز تمامًا عن الكلام، لم يجرؤ على رفع عينيه بينما تكمل هي في مرارة: صدقني.. أنا لا أوجه إليك أصابع الاتهام، أو فلنقل بأنك لست المتهم الأول في كل ما وصلنا إليه الآن، فإن كنتُ أتهم أحدًا بأنه هو المتسبب الرئيسي فيما آل إليه حالنا هذا، فإنما أتهم قلبي أولًا.. نعم، قلبي هو المتهم الأول في كل ذلك نبيل.. قلبي الذي أغفل كل العالم واستمع إليك أنت فقط.. قلبي الذي كان يدرك ويعي جيدًا كل ما يحدث حوله، ولكنه على الرغم من ذلك أغمض عينيه عامدًا متعمدًا ليحظى ببعض السعادة المؤقتة، قلبي الذي أهدر حقوقي ليحافظ على وجودك الباهت في محيط حياته، قلبي الذي ارتضى منك القسوة والهجر والإهمال، وعلى الرغم من ذلك ما زال يحمل لك بعض

الحـب.. ولكـن هـل يمكنك أن تخـبرني ما فائـدة هذا الحـب إن لـم يكن باستطاعتك أن تعلنه وأن تخرج به إلى دائرة النور؟ أجبني نبيل.. أيمكنك أن تأخذ تلك الخطوة في سبيل إنقاذ ما تبقى بيننا؟

دون أن يرفع نظره إلى عينيها أجابها بصوتٍ خفيضٍ: من المؤكد أنني سأفعل ذلك يومًا ما.. إنما أنا انتظر حتى تتحسن ظروفي لأتمكن حينها من الوفاء بوعدي لكِ، فقط امنحيني المزيد من الوقت من أجل حبنا سارة.

أرادات أن تخبره أنها تعلم بأنه لن يفعل ذلك لأنه يخشى الإقدام على تلـك الخطوة، وبأنه لا يمتلـك الجرأة الكافية ليخرجها من دياجير الظلام إلى حيـث نور الشـمس السـاطع، وبـأن أنانيتـه تتحكم به وتصـور له أنه يستطيع امتلاك كل شيء حوله، ولكنها لـم تقدر على التفوه بذلك.. لـم تسـتطع أن تجرحه بقولها هذا، فضلت أن تكتمه داخلها فذاك أفضل لكل منهـما الآن، لذا ردت على كلامـه قائلـة: أنت تعلـم جيدًا أنك لن تفعـل ذلك أبدًا.. فلا سـبب إذًا يدعونا إلى الاسـتمرار فيما نحن فيه، لذا وجب علينا الابتعاد عن بعضنا البعض إلى الأبد.

هالـهُ قولها.. فنظر إليها وهو لا يصدق ما تناهى إلى أسـماعه، سـألها مستنكرًا: ماذا تقصدين بقولك هذا سارة؟

— أقصد ما فهمته أنت بالضبط.. أنا أرغب في الطلاق منك.

— كيف تقولين ذلك وأنتِ تعلمين أني لا أستطيع الابتعاد عنك؟

— ستستطيع .. صدقني، بل إنك قد استطعت ذلك بالفعل منذ فترة طويلة تربو من العامين.

— فلتهدأي قليلًا بالله عليكِ، فليس هكذا تؤخذ مثل هذه الأمور سارة.

— بل هي لا تؤخذ إلا هكذا.. وعلى الرغم من ثقتي مما أقول فإني سأمنحك فرصة لتعيد التفكير في الأمور من جديد، فإن أنت أردت لنا الاستمرار فلتعلن عن زواجنا في موعدٍ أقصاه أسبوعان من الآن، وإن لم تفعل ذلك كما أتوقع.. فأنا أنتظر أن تصلني قسيمة طلاقي منك بعد مرور هذين الأسبوعين بيوم واحد على الأكثر.. سأذهب الآن لملاقاة إيمان وابنتيها في النادي، وأتوقع ألا أجدك هنا عندما أعود.

تركته صامتًا تائهًا بين طرق كل تلك المواجهات السابقة، خطت بمرارة من أمامه، أغلقت باب الشقة خلفها وهي توقن بأن ذاك الباب الذي ما فتئَ يقودها إليه سيغلق هو الآخر في أقرب فرصة، سيغلق بواسطة نبيل نفسه.. وليتحمل هو وقتها ما صنعته يداه.

الخاتمة

عزيزتي نور.. عزيزي وائل..

هـذا هو ثاني خطاباتي الورقية لكما منـذ جئت إلى العاصمة البريطانية لندن منذ ما يقرب من سـبعة أشهر، تعلمان قدر حبي للمس الأوراق عند الكتابـة عليها؛ لـذا تجداني دائمًا مـا أميل لتلك الخطابـات بدرجة أكبر من الرسائل الإلكترونية، خطاب جديد هو.. أعلم بأني لن أرسله إليكما وبأنه سـيحتل مكانه فوق سـطح مكتبي بجوار نظيره السابق حتى إشعارٍ آخرٍ، إنـما أفعـل ذلك كما أخبرتكـما في أول خطابٍ لأنـه لـم تواتِنـي الجرأة بعد لمحاولة معاودة الاتصال بيننا من جديد، خاصة بعد سفركما عقب زواجي مباشرة وانشـغالي بحياتي الجديدة التي جرفتني بـين أمواجها لما يقرب من ثلاثـة أعوام، أعلم أن صلتكما بإيمان لـم تنقطـع، فقد أنبأتني هي بذلك.. علمت منها خبر زواجك وائل وبأنك رزقت بطفلة جميلة أسـميتها حلا.. مبارك عليك قدومها الوضاء، لابد أنها قد أتمت عامها الأول الآن، مبارك

لكِ أيضًا نور على خطبتكِ لأحد أصدقاء وائل من محيط العمل، أتم الله لكِ الأمـر على خير حبيبتي، لعلكما تتسـاءلان عمَّ دعـاني إلى تذكركما والكتابة لكما الآن؟ أجيب عن سـؤالكما هذا بأني ما نسـيتُ مـا كان بيننا قط.. كنتما دائمًا داخل القلب والعقل، ما نسـيتُ جلساتنا سويًّا بشرفة منزل خالتي في ليالي الشـتاء، ليالينا معًا.. ضحكاتنا وأحزاننا التي اقتسـمناها سـويًا، كل ذلك ما برح بالي قيد أُنملة، كثيرًا ما وودتُ لو كان بإمكاني إعادة نهر الحياة إلى الخلف لبضع سـنوات، حتـى أخبركما بعزمي على الـزواج من جديد؛ لأسـتمع إلى رجاحـة عقلك وائل الـذي أثق بأنه كان سـيخبرني بألا أقدم على ذلك، ولأن أرتمي بين أحضانكِ نور وأنتِ تهونين عليَّ قسوة الظروف وتخبريني بأن غدي سـيكون أفضل، أما عن شـق السـؤال الثاني وهو لماذا أكتـب لكما الآن؟ فربما لأن أحوالي قد اسـتقرت كثـيرًا عن ذي قبل، وربما لأني أشـعر بـأن من تحيا هنـا في لندن هي سـارة جديدة ولـدت تقريبًا منذ عامين.. فأحسـنت الحيـاة وفادتها كما يليق بها، فلم تُخلـف بقلبها جروحًا ولا نتـوءات، ربـما تتسـاءلان كذلك عن سـبب مجيئي إلى لندن، حسـنًا.. لا تسـبقا الأحداث فكلٌّ سـيأتي في وقته، فلندع كل ذلك الآن ولنكمل ما بدأنا سرده في الخطاب السـابق، أين كنا قد توقفنا يا تُرى؟ لقد تذكرت.. عنـد إمهالي لنبيل فـترةً لإعادة التفكير في الأمر، فإمـا أن يعلن زواجنا على مـلأ مـن الجميـع، وإما انفصال بـلا رجعـة.. لا داعي للقول بـأن نبيل قد

حاول استمالتي كثيرًا بشتى الطرق، ولكنني استعصمت وقتها بقسوته عليَ، استعنتُ عليه بليالي الوحدة التي كانت تتآكلني نيرانها، وبهجره المتكرر لي للكثير من الأيام، اعتلى صمودي منصة الروح حينها وأسمعه كبريائي.. أنه لا حاجة لي ببقايا من شعورٍ يلقيه إليَّ تفضلًا من قلبه كلما غلبه الاشتياق، فيأتيني ليشبع ظمأ حنينه كل بضع ليالٍ ثم يرحل.. لم يكن ينوي الإعلان عن زواجنا بطبيعة الحال ولكنه كان يحاول كسب المزيد من الوقت علَّني ألين له، لم يداخلني الشك مطلقًا في صِدق حبه لي.. ولكني تقينت أنه يحب نفسه أكثر، غلبته الأنانية وتملكه الخوف على صورة الزوج المثالي التي كان قد أرساها في أذهان من حوله؛ فلم يجرؤ على الإقرار بما أقدم عليه، استغرقنا الأمر ثلاثة أشهر كاملة ما بين محاولاته البائسة لاسترجاعي، وما بين تدخل رامي وإيمان لإقناعه بإنهاء الأمر سريعًا نزولًا على رغبتي، وإكرامًا لطول عشرتنا معًا منذ أيام الجامعة وحتى ذلك الوقت، لم أحاول الزج بمعاذ للتدخل لأنهاء الأمر، فضلت أن أدعه بعيدًا هكذا حتى أتم لي نبيل ما أردت، ما زلتُ أذكر يوم طلاقنا عندما شاهدت تلك الدموع التي ترقرقت بعينيه فأدار وجهه عني سريعًا وانصرف، علمتُ من رامي أنه استحلفه بالله أن يخبرني بأنه قد نفذ لي ما أردته حتى أهدأ، ولكنه يطلب مني إعادة التفكير في الأمر من جديد، وأنه يعتبر طلاقنا أمرًا مؤقتًا وينتظر عودتي إليه وقتما أشاء، لم أدر حقًا لِمَ

لـــم ألق بـالًا إلى قوله هذا، ربما لأني أعلم أنه سـيظل هكـذا خائفًا مترددًا أبـد الدهر، ربما لأني قد اكتشـفت حقيقة طبعه وأنـه يرغب في امتلاك كل شيء حولـه دون تقديـم أي تنازلات من جانبه، وربما يكون قد سـقط من عليائه وغدا شـخصًا عاديًا بالنسـبة لي، ربما وربما.. ولكن الأمر الأكيد أن مكانة نبيل بقلبي كانت قد اهتزت كثيرًا عن ذي قبل، لا أنكر أنني مررت ببعض انتكاسـات الفراق بين الفترة وتالياتها، ولكن لا بأس.. كنتُ أعلم أنهـا ضريبـة حبي لـه وأنها ثمن تحرير قلبـي من قفص الاتهـام الذي دخله بإرادته الحرة يوم أن صدق وعود نبيل وأكاذيبه، وكنتُ على أتم الاستعداد لتسـديد تلـك الضريبة ولدفـع ذاك الثمن، هذا عن نبيـل وما حدث معه، يمكننـي سـماعكِ نـور تقاطعينني قائلـة كعادتكِ في شـغب «ولكنكِ لـم تخبرينا سارة حتى الآن عن سبب تواجدكِ في لندن».

حسـنًا يا شـقية.. سـأخبركِ، ليس من أجل إلحاحكِ هذا ولكن لأن الوقـت قـد حان لذلـك، لتسـمعا إذًا.. قبل إتمـام طلاقي من نبيل بشـهرٍ كاملٍ، جاءتني إيمان فرحة تكاد السـعادة أن تنطلق من عينيها وهتفت بي قائلة: عندي لكِ مفاجأة سـارة يا سارة.. ثم أخذت تضحك منتشيةً، فلم أملـك إلا أن أبادلها تلك الضحكات متسـاءلة عن تلك المفاجأة السـارة، فـما كان منهـا إلا أن أخرجت هاتفها الجوال وضبطته على صورة إعلانٍ ما وطلبـت منـي أن أقرأ بصـوتٍ مرتفع، قربتُ الهاتف منـي وقرأت ما نصه

«يعلـن المعهـد البريطـاني بالقاهرة عن بـدء دبلومة جديدة لتعليـم العربية للناطقـين بغيرهـا.. يمكنكـم الاستفسـار عن طريـق الاتصـال بالأرقام المدونة أسفل الإعلان أو عن طريق قسم العلاقات العامة بالمعهد».

أعدتُ قراءة الخبر لمرة ثانية بصوتٍ خفيضٍ ثم قلتُ لها: حسـنًا.. قد قرأت الخبر ولكني لـم أفهم لِـمَ أنت سعيدة هكذا؟

— أتمزحين؟ أنت سـتتقدمين لنيل تلـك الدبلومة من هناك، لا داعي لتلـك الدهشـة التـي أراها ترتسـم عـلى وجهكِ ودعينـي أوضح لـكِ الأمـر، أتذكرين عندما تحدثنا منذ يومـين عن أنه يجب عليكِ البحث عن وظيفة مناسـبة تلائمكِ وتشغل وقت فراغكِ حتى لا تسقطي صريعة الذكريات بعد ذلك؟ وها قد جاءتكِ الفرصة.

— ولكن هذا الإعلان لا يتحدث عن وظيفة، بل هو يعلن عن دبلومة دراسية للراغبين في ذلك.

— أعلم هذا حبيبتي.. ولكن بما أن بحثنا عن وظيفة مناسبة سيتطلب منـا الكثير من الوقت؛ لنجد ذلك العمل الذي يلائمكِ ويرضيكِ وتسـتطيعين إثبات ذاتكِ من خلاله، فقد فكرتُ في تلك الدبلومة عندما وقعـت عليها عيناي، أولًا.. هي لها علاقة بدراسـتكِ للغة العربية بالجامعة، وثانيًا.. الدراسـة بها سوف تشغلكِ لعام كامل،

وثالثًا.. وهو الأهم أنها ستؤهلكِ للعمل ببعض المراكز الخاصة لتعليم الأجانب الراغبين في دراسة اللغة العربية، أو للعمل في المعهد البريطاني في المجال نفسه، كما أن بعض السفارات الأجنبية هنا تطلب كل فترة بعض الحاصلين على تلك الدبلومة؛ للعمل ببعض المنح الدراسية التي تنظمها لتعليم العربية لبعض رعاياها الأجانب هنا في مصر أو في الخارج.

— أحقًا ما تقولين؟

— نعم حبيبتي.. لقد تواصلتُ معهم هاتفيًا وتأكدت من ذلك.

احتضنتها قائلة في فرح: وما الذي سيتطلبه الأمر لألتحق بتلك الدبلومة؟

قالت في حماسٍ شديد: لا شيء أكثر من أننا سنقوم بتسجيل اسمك في كشوف الراغبين في الالتحاق بها عن طريق الإنترنت، ثم سيحددون لكِ موعدًا لمقابلة شخصية يعقبها اختبار يقومون بإجرائه لانتقاء أفضل المتقدمين من وجهة نظرهم، فبطبيعة الحال أنه يتقدم لهم الكثيرون ولكنهم يقبلون أعدادًا محدودة فقط.

انتقل إليَّ حماسها فسألتها بحماسٍ أكبر: أتعتقدين أنني سأكون من ضمن الفائزين الذين سيلتحقون بها؟

— أثق بذلك كثيرًا حبيبتي.

وقد كان.. تقدمت إلى ذلك الاختبار واجتزته بنجاحٍ، ثم بدأت

الانتظام في الدراسة قبل طلاقي بعدة أيام، ساعدني هذا على اجتياز تلك الفترة، لا أنكر تأثري بالأمر لفترة ليست بالقصيرة.. ولكن انشغالي بالاستذكار ومتابعة دورات التعليم والتصاق إيمان وعائلتها بي قد خفف عني بعض تبعات تلك المرحلة.

خطوت على دَرج التعافي بخطوات وئيدة ولكنها راسخة، وطنتُ نفسي على ذلك فلم أحاول اجترار الذكريات، بدأتُ في اتخاذ عدة إجراءات وجدتُ أنها قد تساعدني في الشفاء من تلك التجربة، غيرت رقم هاتفي الأرضي ورقم الهاتف المحمول حتى أسُد على نبيل كل الطرق المؤدية إليَّ، ولكني كنتُ أجده جالسًا بسيارته أمام البناية المقابلة لي.. ينتظر عودتي في بعض الليالي، فكنتُ أتصنع عدم رؤيتي له وأصعد مباشرة إلى الشقة، كان ذلك من شأنه قديمًا أن يلقيني بين ذراعيّ حبه من جديد، ولكن كما قلت لكما.. فأنا سارة أخرى غير سارته التي عرفها قديمًا، حقًا كنتُ أبكي أحيانًا عقب رؤيتي له، أو أهرول جهة النافذة لأنظر إليه من خلف خصاصها، ولكني كنتُ أعلم من داخلي أن ما يحدث معي إنما هو أمر مؤقت سرعان ما سوف يزول إذا ما أحكمت السيطرة على نفسي، كنتُ أشد من عضد قلبي بإبعاده عن التفكير في نبيل.. بأن أغرق نفسي في الاستذكار والأبحاث والصلاة وحفظ بعض سور القرآن الكريم، نسيتُ أن أخبركما بأني كنتُ قد التحقت بإحدى دور تحفيظ وتجويد القرآن في

تلـك الفـترة، كما تريـان.. كان يومـي ممتلئًا منـذ إشراقة شـمس الصباح وحتى يلتقيني القمر ليلًا، عادت علاقتي بمعاذ سريعًا كما كانت من قبل، فليـس لنا غـير بعضنا البعض كما تعلـمان، يأخذني الحديث عـن معاذ إلى حيـث حبيبن آخرين أرغب في عودة علاقتي معهـما أيضًا، هذان الحبيبان همـا أنتما، أعلم أننا سـنعود كما كنا، ربما ليس الآن.. ولكننا سـنعود، بالله لا تتقافزين هكذا نور وتسـتمرين في التسـاؤل عن سـبب وجودي هنا في لنـدن.. أخبرتـكِ أنني سـأفصح لكِ عن السـبب، ولكن.. هـلا أعرتني انتباهك أنت الآخر وائل؟ فأنا أعلم أنه يعنيكما شأني كثيرًا أنتما الاثنان..

حسـنًا.. بعد أربعة أشـهر من حصولي عـلى تلك الدبلومـة بامتياز، أعلنـت السـفارة البريطانيـة عن منحة لتدريـس اللغة العربيـة بالعاصمة البريطانية لندن، وعن حاجتها لبعض الحاصلين على دبلومة تعليم العربية للناطقـين بغيرها لاجتياز اختبار نيل تلك المنحـة، تحضرتُ جيدًا وقمتُ بالتقـدم إلى هـذا الاختبار، ونجحتُ في اجتيازه وتمكنُـت من الفوز بتلك المنحة، رتبت السـفارة إقامتي هنا في لندن في أحد فنادق حي (كرانفورد) في (ميـدل إسـكس)، ليس فندقًا فاخرًا كما قد يخيـل إليكما، ولكن الإقامة به ترضيني إلى حدٍ كبير، أسـتقل المترو يوميًـا للوصول إلى العمل، حيث أقوم بتدريس اللغة العربية لعدة صفوف دراسية لبعض الإنجليز وبعض الجنسـيات الأخرى مـن الراغبين في تعلمها.. أعمل لخمسـة أيامٍ من كل

أسبوع من التاسعة صباحًا وحتى الخامسة مساءً.. إن حياتي هنا تكاد تكون مكتملة، كما تريان.. فالكثير من الأشياء المهمة قد حدثت لي خلال تلك الفترة الماضية، وها أنا قد أخبرتكما عنها الآن.. بقي أمر مهم واحد لم أخبركما به بعد.. يتعلق بأحد الطلبة المسلمين الذين أقوم بالتدريس لهم هنا، إنه يدعى مالك عبد الرحمن.. إنجليزي مسلم هو، يعمل كطبيب أسنانٍ بأحد مستشفيات لندن، شعرتُ منذ رأيته بأنه منجذب تجاهي، وبأنه شديد الإعجاب بي.. كنا نتبادل بعض الأحاديث عقب انتهاء فترة الدرس، تعاملنا كصديقين لفترة من الوقت، دعاني خلالها عدة مرات إلى الخروج معه لتناول العشاء، إنه إنسان مهذب، شديد الاحترام، فاتحني أول أمس برغبته في الزواج مني؛ اتفقت معه على أن نمنح بعضنا البعض الوقت الكافي للتفكير في الأمر.. لا أنكر أنني أشعر ببعض الانجذاب نحوه أيضًا، قد تتطور الأحداث مستقبلًا وأجدني أحبه رغمًا عني.. ولكن حتى وإن حدث ذلك فسيكون حبي له عاقلًا لا يُورِد قلبي موارد التهلكة، ولا يجعله متهمًا أمام ناظري من جديد.

أتعلمان؟ قبل كتابة خطابي هذا لكما كنتُ أقرأ تلك الرسالة النصية التي أرسلها إليَّ مالك عبر الهاتف، يحدثني فيها عن تلك المقولة التي قرأها وأعجبته كثيرًا، والتي تقول «لكل شخص نصيب من اسمه» والتي يعتقد بأنها تنطبق عليَّ بشدة، فهو يرى أني أأسر القلب والعين والروح

معًا.. أجدني أفكر في قوله هذا الآن، فهذه المقولة لـم تنطبق على الرجلين اللذين احتل وجودهما سـنوات حياتي الماضية وارتبط اسـمي بهما بشكل رسـمي، فآسر لـم يسـتطع أسر قلبـي باحتوائه له، ربـما يكون قد أسرني حقًا بقيود الجراح التي قد ألحقها بروحي، ونبيل أيضًا لـم يكن نبيلًا معي عـلى الإطـلاق، وإن كنتُ قد ظننتـه كذلك في بادئ الأمـر، على العكس مـن معـاذ الذي كنت أشـعر بأن قلبه دائـمًا ما يعيذني من تقلبـات الحياة، أمـا عنكِ أنت نـور.. فقد كنتِ دومًا لي ذلك النـور الذي يضيء لي ظلام الأيـام برقتكِ وحبكِ وقلبـكِ الصافي، إيمان كذلك نالـت نصيبها كاملًا من اسـمها.. كانت دائمًا ما تؤمن بأني سـأصل إلى ما أريده وأسـتحقه في هذه الحياة وتحثني على المقاتلة من أجله، حتى في أشد لحظات استسلامي كانت تؤمن بقدرتي في التغلب على انتكاساتي، وكأنها عاهدتني على ذلك الإيـمان.. فما نكثـت به قط ولا حنثت بإيمانها بقسـم صداقتنا كذلك، أما عنـك أنـت وائل.. فذكرني بالبحث عن معنى اسـمك لأعرف هل نلتَ نصيبـك منـه أم لا؟ تتسـاءلان عن مالك؟ حسـنًا.. ربما ينـال نصيبه من اسـمه ويملـك قلبي يومًا ما، ولكـن كما قلت لكما من قبل.. لن أسـمح لقلبـي وقتها بأن يندفع وسـط سـيل حبـه؛ كي لا يقـف في قفص الاتهام أمامي مرة أخرى.

هـا هـو مالك قد أتـى في موعده كما اتفقنـا، أراه يقبل عـليَّ ويقرؤني السـلام بلسان لـم يعتد على نطق العربية بطلاقة بعد.. يخبرني أن «السلام عليكم» فأبتسـم له وأرد سلامه بأفضل منه قائلة: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

يسألني بعربيته الوليدة: ماذا تفعلين سارة؟ فأخبره بأني أكتب خطابًا لابني خالتي، إنه يقرؤكما السلام كما خمنتما..

سـأترككما الآن وأثق بأننا سـنعود كما كنا ذات يوم، ينبؤني قلبي بأن هذا اليوم ليس ببعيد، ماذا؟ تتسـاءلان عما سيحدث بيني وبين مالك بعد ذلك من وجهة نظري، حسـنًا.. ربما تكون السـعادة سـتنتظرنا هناك عند ناصيـة الحلـم يومًا ما، ولكن... لندع كل شيء لوقته، فإن تم هذا الأمر.. فلتكن تلك حكاية أخرى أقصها عليكما في خطاب قادم.

تمت

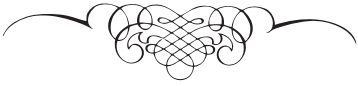

الكاتبة في سطور..

– عبير مصطفى محمد

— شاعرة وقاصة مصرية من مواليد القاهرة.

— حاصلة على بكالريوس العلوم الزراعية (شعبة البساتين) من جامعة القاهرة.

— نائب رئيس مجلس إدارة كاريزما للنشر والتوزيع.

— عضوة في فريق كوكب العزلة الأدبي.

— عضوة في مبادرة نساء مبدعات.

— عملت كمذيعة ومعدة برامج براديو تردد وراديو بنت الزيات.

— عملت كمحررة بجريدة حديث الصباح الشهرية.

— عملت كمدققة لغوية بدار جولدن بوك للنشر والتوزيع.

- نُشرت لها عدة أعمال ورقية..

— كتاب (هذا أنا) قصص قصيرة وخواطر لمجموعة مؤلفين والصادر عن دار الزيات للنشر والتوزيع.

— كتاب (رؤى حالمة) قصص قصيرة وخواطر لمجموعة مؤلفين والصادر عن دار الزيات للنشر والتوزيع.

— كتاب (أوتار) خواطر وأشعار لمجموعة مؤلفين والصادر عن دار لوتس للنشر الحر.

- شاركت في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام 2018 بأعمال:

— كتاب (رؤى القلب) مجموعة قصصية لمجموعة مبدعين من أنحاء مختلفة من الوطن العربي تحت مبادرة نساء مبدعات، والصادر عن دار الشهد للنشر والتوزيع.

— كتاب (كوكب العزلة) مجموعة قصصية لمجموعة مبدعين ويُعد أولى إصدارات فريق كوكب العزلة الأدبي والصادر عن دار جولدن بوك للنشر والتوزيع.

— ديوان (رسائل لم تصل إليك) رسائل عاطفية نثرية وهو أول كتاب منفرد خاص بها والصادر عن دار جولدن بوك للنشر والتوزيع.

— لمتابعة أعمالها على فيس بوك عبر حساب..

https://www.facebook.com/abeer.mostafa.90475